رواية

المحبُّون

جمعة محمد جمعة

رئيس اتحاد الكتاب
أ. فاروق خورشيد

مقرر لجنة النشر
أ. أحمد الشيخ

تصميم الغلاف والإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

اهداء

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، كانت رواية (المراهقون) باكورة هذه الروايات المتصلة المنفصلة، جاءت بعدها رواية (المتعبون) ثم رواية (المحبون)، ولو وفقنا الله فى روايتنا الرابعة (الحائرون) أكون قد حققت بعض ماأهدف الى تحقيقه.

آمل أن أكون قد أسهمت فى بحر الرواية المصرية والعربية بقطرة.

وآمل أن يكون عملى هذا لبنة سليمة فى بنيان صحيح شامخ.

جمعة محمد جمعة

(١)

الأيام المعدودة ممدودة، الزمان يعاندها، يهرول، تتحول أيام فرحها وسعادتها إلى ثوان، تفر فرار المستجير من الرمضاء، كم تمنت أن يتوقف!! أن يمكث الزمن وكامل معها فى النادى، أن يبقياه رهين حبهما، لحظة أن احتضنت يده يدها، تتسرب إلى روحها كلماته، منغمة، رخيمة، لكن الزمن أبى التوقف، وهرول ليبدد فرحتها، وما أن تبددت بدأ يغيظها، يتباطأ، تمتد ثوانيه إلى ساعات وأيام..

لم تطلع سماح أحدا على سرها، اختصها - وحدها - بموعد وصول طائرته، أهداها فرحة بديلا عن فرحة تخيلتها، تمنت يوما أن تلقاه عند عودته، أمام الناس كلهم، وعلى مسمع من أهل الحى، تمنت أن يعود ليجدها فى بيت أمها، تخرج إليه مهرولة، تلقى

بنفسها بين أحضانه، تغمره بقبلاتها، حنانها، تعلن حبها، تسمع قول الناس:

« مجنونة» ، جنون حبها هو عقل حياتها، تحمد الله، تشكره، أن أبقى لها عقلها ولم يسافر معه، تفكر فيه، تتشوق إليه، تعانقه فى الحلم واليقظة، تتألم الألم الجميل للحظة تذكر الذكرى، تعوم فوق أمواج الانتظار الساكنة..

التفت عم عبده السائق، طارد شرودها:

- وصلنا المطار ياست هانم..

تنظر فى ساعة يدها، تتعانق عقاربها وتفترق قبل أن يرتد طرفها، مازال فى الوقت مساحة هل تنتظر فى السيارة؟، أم تغادرها، الأفضل، جولة فى ردهات المطار، تراه لأول مرة، المبنى الضخم تخشاه، تقدمت، دخلت، تتوقف مبهورة، زحام بشر، حقائب، رجال، نساء، أطفال، قبلات، دموع، سلامات، قبلات طائرة، عيون عالقة مودعة، عيون دامعة مستقبلة، ووداع على أمل اللقاء..

صعدت درجات السلم العريض، وقفت فى شرفة المطار، تنظر مبحلقة، ترى الطائرات ضخمة، كبيرة، عالية، إما أن نظرها خدعها وهى تراها عالية فى السماء، وإما أن الطائرة نفسها هى الخادعة، ترى القريبة منها كبيرة، تصغر كلما ابتعدت تجرى فوق الممر، ترى هل تراه صغيرا، أم كبيرا، هل ستعرفه، تحاول جمع شتات خيالها، وجهه، عيناه، شعره، أبيض أم أسمر؟، طويل أم قصير؟، بدين أم نحيف؟، تدق رأسها بقبضة يدها، تجز بأسنانها على شفتها السفلى مرة، والعليا مرة أخرى..

تتمشى، متنقلة من جانب إلى جانب، هل تتعرف عليه؟ ألقى بها السؤال القصير المكير فى أتون خوف مرعب، كلما تجمعت بعض الملامح تبددت، كلما تذكرت بعض أجزاء من هيئته أو جسده انتفضت لقصور ذهنها عن تجميع الصورة كاملة..

حركة الطائرات لاتهدأ، طائرات تهبط أخرى تقلع، أناس يصعدون إلى جوفها آخرون تطردهم منه، خمنت، بل أكد لها حبها أنه سيتعرف عليها، مجرد أن يقف على سلم الطائرة سترى ذراعه تلوح لها، لاحظت، أيدى كثيرة ترتفع ملوحة، طائرته لم تأت بعد، كيف؟ أدارت ظهرها لمهبط الطائرات، تنظر إلى الحوائط ساهمة، تحس بسخونة الدموع وهى تنبت دمعة دمعة، «لو كنت تعرفه ياعم عبده، لأدخلت إلى نفسى الهدوء والسكينة..»

تعرف مشيته، مرفوع القامة، خطواته منتظمة لاهى بطيئة ولامسرعة، وجهه مائل إلى البياض، وإن كانت تشوبه سمرة خفيفة، عيناه سوداوان، حاجباه خفيفان، شفتاه صغيرتان، شعره أسود فاحم، جبهته بين بين، إبتهجت، دفنت فمها فى صدر فستانها، كادت تزغرد.. اقترب منها عم عبده قائلا:

ـ اعلنوا عن وصول الطائرة..

قالها وكررها، ربت على كتفها، إنتفضت وأرعبته، تراجع خطوات، قالت خجلة من انتفاضتها واضطرابها:

ـ متأسفة ياعم عبده.. لماذا جئت؟

- أعلنوا عن وصول الطائرة، جئت أخبرك..

تطلع إلى طائرة تقترب على مبعدة، تهدئ من سرعتها، قال:

- ربما تكون هى..

تابعت الطائرة، توقفت، اقتربت سيارة صغيرة فوقها سلم، اقتربت أكثر، السلم يقترب، يلتصق بالطائرة، باب الطائرة يفتح، يخرج الركاب، واحدا واحدا، واحدة واحدة، يتوالى خروجهم، كلهم رجال كبار السن، ونساء، وأطفال، خفق قلبها، رأته، عرفته، لوحت صارخة:

- كامل.. كامل..

لوح بذراعه، هبط سريعا، سجد على الأرض، قبلها، استقام، دلف إلى السيارة، يتابعها، تتابعه من خلال الزجاج، استدارت السيارة، انتقل إلى الجانب الآخر، يلوح تلوح، وقفت السيارة، غادرها، تابعته حتى اختفى تحت الشرفة، هرب الدم من عروقها، هبطت السلم لاتدرى كيف؟ عم عبده يتبعها محذرا:

- على مهل، على مهل ياست هانم..

وقفت حائرة، تتلفت يمنة ويسرة، لاترى إلا رؤوسا، كل الصورة أمام عينيها رؤوس، تقترب الرؤوس وتبين، تتحدد الملامح، أطَّل من خلف زجاج الحاجز، يبتسم، يضحك، حال زجاج الحاجز دون عناق يديهما، قال:

- حالا أكون عندك..

قالت فى لهفة وسعادة وبشاشة:

- أرأيته ياعم عبده..

- نعم رأيته، لكن...

- انتظر ياعم عبده فى السيارة...

قالتها لاتدرى لماذا؟، تابعته وهو ينصرف فى خطوات بطيئة، عادت تتابع كامل وهو ينهى الإجراءات، يقترب أكثر فأكثر، خرج إليها، ألقى بكل حقائبه أرضا، إحتضنها، طار بها، لاأرض تطؤها أقدامها، ولاسماء تلمسها، قبلها لاتدرى كم عدد القبل، حضنه يعتصرها فى قوة ينتشى جسدها فرحة وسعادة.. أنزلها، ينظر إلى وجهها محدقا:

- أصادقة عيناى؟؟

أجهشت بالبكاء، دفنت وجهها فى صدره، تقول مغمغمة:

- أموت الآن ولاتبعدنى عنك...

- أبدا أبدا...

- أجلسنى ياكامل، قدماى لاأشعر بهما...

حملها بين ذراعيه، أجلسها، جلس إلى جوارها:

- مالك ياحبيبتى، مالك ياسماح..

- أنا بخير، وقفت طويلا فى الشرفة أنتظرك..

- ياحبيبتى..

تلفت حوله فى لهفة:

- حقائبى..

قال رجل فارع الطول، قمحى اللون:

- حقائبك معى ياأستاذ..

وأخذ ينقلها إليه، ساعده كامل فى نقلها وهو يردد:

- شكرا.. أشكرك جدا، أنا عاجز عن الشكر..

حيَّاه الرجل وانصرف..

أحضر كامل عربة حمّلها حقائبه، وهو يمسح شعرها قال:

- هه، أحسن الآن..

قالت:

- الحمد لله..

نهضت متثاقلة، يدفع العربه بيده اليمنى، ذراعه الأيسر يحيط بخصرها، تميل برأسها على صدره، تخفى دموعها، تقول:

- أوصلك للبيت..

- آخذ تاكسى..

- أوصلك، وأبقى بالقرب منك..

توقف، نظر إليها مليا، سألها:

- هل يهمك إقامة فرح؟

قالت وهى تضع يدها اليسرى على قلبها:

ـ أنا لايهمنى شئ فى الدنيا كلها إلا أنت..

ـ يعنى...

تشبثت يداها برقبته هاتفة:

ـ قلها ياكامل.. قلها..

ـ نتزوج..

ـ عند أقرب مأذون فى طريقنا..

هرع عم عبده إليهما، حمل حقيبتين، وضعهما فى حقيبة السيارة، عاد ليأخذ الثالثة قال كامل:

ـ كفى، أنا أضعها بنفسى..

قالت سماح وهى تقدم عم عبده له:

ـ عم عبده، والدى..

تطلع إليها عم عبده بعينين مغرقتين بالدهشة والإستفسار:

ـ العفو ياهانم..

قال كامل بعدما ركبا السيارة، وانطلقت فى طريق العودة:

ـ ياعم عبده، تسمح لى أطلب يد سماح للزواج بها..

قال عم عبده مترددا:

ـ والله لاأدرى ماأقول..

قالت سماح:

- قل موافق أرجوك.. أرح قلبى الله يخليك..

- موافق..

أطلقت سماح زغرودة طويلة، ردت عليها السيارات المارقة فى الطريق بإطلاق أصوات الكلاكسات منغمة، كرتم الدق على الطبلة...، يلوح راكبوها بأيديهم، هى تزغرد، وكامل يقهقه، وعم عبده يتلفت عن يمينه، وعن يساره، خشية احتكاك السيارة بإحدى السيارات التى أحاطت بهم..

فرق الزحام موكب الزفاف، سأل عم عبده:

- البيت ياهانم إن شاء الله..

- لا.. عند أمى ياعم عبده.. أبيت الليلة معها..

أسلم كامل يديه ليديها، تبثهما الدفء، عيناه شاردتان، تسبقان السيارة، يشعر بغربة شديدة، أشياء كثيرة يراها لم يخلفها عند سفره، بنايات جديدة، سيارات كثيرة، لافتات معلقة، شعارات حزينة وأعلام فوق بعض المنشآت منكسة..

(٢)

قبل أن تدخل السيارة الحى، أفاق كامل وقال:

ـ سنعقد قراننا ونؤجل الفرح، كيف نفرح والبلد كلها حزينة؟

ضغطت يديه بين يديها :

ـ قلت لك لاأريد فرحا، فرحتى بك وحدك..

تخطت السيارة الميدان، يتابع كامل الناس، المحلات، يتابع بدهشة يافطات المحلات، كلها تحمل اسم نوال، علام يدل هذا الاتفاق على اسم نوال، هل هى...؟ فى دهشة هتف:

ـ معقول.. كل ماأراه يحمل اسم نوال..

نظرت فى عينيه متسائلة:

ـ أتعرفها ياكامل؟

سمعها، لكن تواجد صابر فى مخيلته جعله يقول فى أسى:

- كان الله في عونك ياصابر..

ثم إلتفت إليها بكامل وجهه وقال:

- قصة حب عجيبة وغريبة، أقصّها عليك يوما ما..

اخترقت السيارة أحد شوارع أرض الحديقة، دخلت الشارع الدائرى، بعض الصبية يجرون يتعلقون بها، عندما اقتربت من بيت كامل أشارت سماح:

- هنا ياعم عبده..

فتح كامل الباب المجاور له، تصم أذنيه النداءات باسمه، تجوب المكان، هرول ناحيته أبوه، أخذه بين أحضانه، لمح أمه واقفة على عتبة باب البيت، رافعة ذراعيها متهيئة لاحتضانه تخلص بحنو من ذراعى أبيه، هرول ناحية أمه، تبادلا الأحضان والقبلات، تبكى:

- ياحبيبى يا ابنى، من لهفتى نزلت حافية..

لم تتركه، صحبته معها خطوة خطوة، يتْبعهما الأب مرددا:

- ألف حمد وشكر لك يارب..

اهتم كارم بإستقبال سماح، تناول الحقائب من عم عبده، أخذتها منه أيدى متطوعة حملتها عنه، مشى بجانب سماح، عندما همت بالإنعطاف نحو بيت أمها قال:

- لا والله، أنت ضيفتنا..

قالت فى شئ من التردد:

ـ أمى تنتظرنى و...

سألها عم عبده:

ـ أى خدمة ياست هانم؟

ـ شكرا، أبلغ زينب ما قلت لك.. مع السلامة..

تركها عم عبده، ركب السيارة وانطلق بها، يحاول تفسير ما رآه، ما سمعه، وافق على زواجها لا يعرف ممن؟ قال: «هذا شأنها وحدها..»

تذكر عم عبده البيه عزت، أيامه الأخيرة، الاتهام الباطل الذى أدى به إلى السجن، عانى فيه كل أصناف العذاب، كل الآلام النفسية، دفعت به مجتمعة إلى حافة الجنون، أصيب بالشلل لتأخر العدالة فى إطلاق سراحه، ثم اكتشاف مرض القلب، وطلب الأطباء سفره للخارج لإجراء جراحة خطيرة، نقل شريان من الساق إلى القلب ، حددوا له دولة بعينها ومستشفى لا تجرى مثل هذه العملية إلا به.. وقفت القوانين حائلا دون السفر، فلم يستطع محاميه الحصول علي موافقة بتحويل بعض المال لزوم إجرائها.. الشلل والقلب، يبدو أنه فقد الأمل سريعا فى استمرار الحياة، أشهر قلائل قضاها بعد عقد قرانه هادئ البال، راضى النفس، يقول له:

ـ الحمد لله، إذا طال رقادى فلتعلم ياعم عبده أن ذنوبى كثيرة، وإذا اختارنى الله فى أقرب وقت فله كل حمد وكل شكر..

يعـرف عم عبـده من مـعـايشـتـه للناس، ومن مـجـمل خبـرته الحياتية، أن الأعمار تطول وتقصر، من يحبه ربه لايطيل عذابه فى فراش مرض، أو فى حالة عجز، ويبدو أن الله أحب عبده عزت، فلم يطل عذابه فى الدنيا..

قالت له زينب عندما رأته:

- راجع وحدك ياعم عبده..

قال:

- أخبرتنى الست سماح، أنها عزمت المبيت عند أمها..

- يعنى أبيت وحدى الليلة.. أمرى لله..

تمنى لها نوما هادئا، وانصرف..

لم تستطع سماح الإفلات من كارم، وأمه من بعده، صعدت معها إلى شقتها، جلست على الكنبة المواجهة للكنبة التى جلس عليها كامل، رغم إيماءته للجلوس بجواره، فضلت الجلوس إلى جوار أمه، تنظر إليه، تشبع نهم عينيها، تشعر بأنها فى حلم يقظة، هل حقيقة مايجرى تراه وتحس به؟ كانت المسافة طويلة بعمق سنوات من العمر، وطول ساعات السفر، انتهت الفرقة، وتبدد البعاد، تستمع أحيانا إلى صوته وهو يحكى عن غربته، وأحيانا تشرد، إلى لامكان، ولازمان.. نبهتها أم كامل عدة مرات، مرة تقول:

- كم تعذب ياروح أمه..

ومرة ثانية تقول:

- تحمل مالايتحمله أحد..

وأخيرا هبت واقفة وقالت:

- تعالى ياسماح، تعالى نصعد للسطح، عندك إستعداد لمساعدتى..

- تحت أمرك..

صعدتا إلى السطح، فتحت أم كامل باب عشة الفراخ، أمسكت بعدد منها، تناولها لسماح واحدة واحدة قائلة:

- ضعيها فى القفص..

أكتمل عددها ثلاثة أزواج، تلفتت حولها، قالت متحيرة:

- السكين كانت فى يدى..

تناولت سماح السكين من فوق العشة، قدمتها لها، نظرت إليها أم كامل برهة، قالت:

- تعالى ياسماح، إخلعى فستانك، وألبسى جلبابى..

- لاضرورة ياأم كامل..

- فستانك يتسخ يابنتى، ستساعديننى فى تنظيفها، وإعداد الطعام، لاتظنى نفسك ضيفة..

شعرت سماح بسعادة غامرة، أطلّت آثارها إبتسامة عريضة، قالت فرحة:

- أساعدك بكل قواى.. لتعرفى شطارتى..

نزلتا إلى حجرة نوم أم كامل، خلعت سماح فستانها وارتدت جلبابا قدمته لها، صعدتا مرة أخرى إلى السطح، ذبحت أم كامل الفراخ بمساعدة سماح، نزلتا بها إلى المطبخ، كان الماء يغلى فوق الموقد، مدت يدها فى باطن ترابيزة المطبخ، أخرجت حلة كبيرة، صبت فيها الماء الساخن، أعادت ملء الوعاء مرة أخرى من حنفية المياه، ثم وضعته ليسخن، جلست إلى جوار سماح لتنظيف الفراخ، تضع كل منهما فرخة فى الماء الساخن ثم ترفعها وتبدأ فى نزع الريش عنها، تقول أم كامل:

- الحمد لله، ماتوقعت رؤيته مرة أخرى، كل ليلة قبل النوم أقرأ الفاتحة، أدعو الله أن أراه قبل موتى..

قالت سماح:

- أقدر ياأمى معاناتك، ومعاناة أبيه..

مصمصت أم كامل شفتيها قائلة:

- أبوه، كنت أسمعه ينهنه بالبكاء كل ليلة، كنت أقول له ارحم نفسك وارحمنى.. مارأيك؟ نعمل فاصوليا ناشفة وأرز، أو صينية فتة.. إختارى ماتحبين..

- الفتة أحسن.. أعدها أنا بنفسى.. لعلى أستفيد من رأيكم فى طبيخى..

قالت أم كامل فى شئ من الأسى:

- كان نفسى فى بنت أعلمها وأربيها، لكن القسمة..

ـ اعتبرينى بنتك..

اقترب كامل من باب المطبخ، قال سعيدا:

ـ لكل إنسان أم واحدة وأنا لى أُمَّان..

نظرت إليه سماح مستنكرة، عقب قائلا:

ـ مادمت فى جلباب أمى، تكونى مثلها.. جميلة والله عليك ياسماح..

قالت أمه:

ـ مادامت جميلة، اعتبريها هدية متواضعة منى..

قال كامل:

ـ ولم تأخذها، توضع فى الدولاب على ذمتها، تلبسها فى زياراتها..

ـ والله فكرة.. إن شاء الله أغسلها وأطبقها وأعرفك مكانها..

ضحكت سماح، وتوقفت فجأة وكامل يقول:

ـ الحمد لله، حماتك راضية عنك..

التفتت أم كامل لابنها بكامل جسدها وقالت:

ـ صحيح ياكامل.. صحيح إخترتها....

قاطعها بسرعة:

ـ إذا قلت مبروك..

وضعت أم كامل يدها على فمها وأطلقت عدة زغاريد، ردت على تساؤل كارم وأبيه قائلة:

- الفرحة فرحتين، رجوع كامل فرحة وزواجه فرحة ثانية..

قامت، مسحت يديها المبللتين بالماء فى جلبابها، قالت لسماح:

- عليك إعداد الأكل، وأنا ذاهبة لأمك أفرحها..

هرعت أم كامل لتغيير جلبابها، قال كامل لسماح وهو يجلس مقرفصا:

- أساعدك..

ضربته على يده فى حنو وقالت:

- عندى الكفاءة أجهز الأكل لوحدى.. تفضل أنت..

- تطردينى..

- تفضل غير مطرود..

نهض واقفا، وضع يديه على وسطه وقال:

- على كل حال، أى مساعدة أنا موجود، أنا طباخ ماهر، الغربة علمتنى..

- قلت لك تفضل..

- يكون فى علمك أمى تمتحنك، إحترسى..

- اطمئن، إذهب ودعنى أقوم بعملى..

عـاد كـامل إلى حـجـرة الكتب، جلس، ألقى نظرة إلى الحـقـائب الثلاث، قال لأبيه:

ـ أحضرت لك عباءة ممتازة..

نظر إلى أخيه، وقال:

ـ وأنت ياكـارم قـمـاش بدلة إن شـاء الله تـعـجـبك، كل واحـد له نصيبه.. إن شاء الله فى الغد افتح الحقائب، و...

قاطعه أبوه قائلا:

ـ أنا يهمنى رجوعك بالسلامة..

بدأ الليل يعلن عن قدومـه، قـام أبو كـامل إلى زر النور، ضـغطه. انبعث ضوء اللمبة النيون قال وهو يعود إلى مكانه:

ـ الكهرباء نعمه..

قام كامل إلى الشرفة وهو يقول:

ـ أمى تأخرت..

ألقى نظرة سريعة وعاد قائلا:

ـ ماشاء الله، الحتة كلها مضاءة..

أعلنت سـمـاح الانتهـاء من إعـداد الطعـام، خـرجت إلى الشـرفـة، تبعها كامل تهمس فى أذنه:

ـ كنت أرقب وقوفك هنا أتمنى وأحلم..

ـ كنت أراك، تهتمين بنفسك، تدخلين البيت وتخرجين..

- أنت ترضينى..

- أبدا، لم أكن أفكر وقتها فى الحب.. يعنى قلبى لم يكن مستعدا، الظروف جعلت مشاعرى تخمد، تنزوى، أنا ياسماح لم أحب قبلك..

نظرت إليه طويلا، هل تقول له؟ هل تذكِّره؟ هل نسى عزيزة؟، تود أن تقول له ماقالته لها يوما، خشيت إغضابه، طردت خيال عزيزة من ذهنها، أمسكت يده، قالت فى خفوت كأنها تحدث نفسها:

- الأمل أعز شئ فى الوجود.. تحقيقه يعنى السعادة.. الفشل فى تحقيقه يعنى التعاسة.. باغتها بسؤاله:

- هل أنت سعيدة ياسماح؟

أدركت أن همسها لنفسها وصل أذنيه، تطلعت إلى السماء، قالت:

- ربنا يديمها علينا، ويمنع عنا الحسد وعيون الحسَّاد..

بعد نظرة أسفل الشرفة قالت:

- جاءت أمى مع أمك..

دخلا من الشرفة، اخترقا حجرة الكنب، وقفا بباب الشقة فى انتظار صعود أمه وأمها، قال كامل مرحبا:

- أهلا أم العروسة..

قالت أم سماح وهى تصافحه وتهنئه بالعودة:

ـ عروستك قلبى غضبان عليها..

قالت أم كامل:

ـ غضبك من وراء قلبك،...

تدخلت سماح فى الحديث، وهى تقبل وجنتى أمها:

ـ سامحينى، غصب عنى..

قالت أم سماح مداعبة إبنتها:

ـ يابنت عمرى ماأقدر أغضب عليك.. أنت نور عينى، وأتمنى لك كل سعادة..

عاشت أم سماح ردحا طويلا من الزمن لاتعرف معنى كلمة سعادة، أو تعاسة، سمعتها قبل قليل من أم كامل، طول عمرها تعيش فى هم وحزن، شقاء وتعب، تنظر إلى ابنتها تكبر وتكبر محرومة من أب يرعاها، يحنو عليها، عرفت الحزن ولم تقل يوما عنه تعاسة، وعرفت مؤخرا الفرح ولم تقل عنه سعادة..

طلبت أم كامل أن تضع سماح التزابيزة أمام أبى كامل وولديه، وتجلس هى وسماح وأمها حول الطبلية، قال أبو كامل:

ـ لاياسماح، نأكل كلنا معا، نلتف حول الطبلية، البركة فى اللمَّة..

يتناولون الطعام بشهية، تتلقى سماح كلمات الثناء، قال أبو كامل:

- الله.. تسلم يديك..

وقالت أم كامل:

- نفسك حلو فى الأكل ياسماح..

قال كامل وهو ينظر إلى أم سماح:

- بعد إذنك طبعا وموافقتك ياحماتى، إتفقت مع سماح على كتب الكتاب فى أقرب وقت ممكن يعنى ممكن يكون يوم الخميس..

ردت أم سماح:

- والله ياابنى هى تقرر، هى صاحبة الشأن..

قال أبو كامل:

- يعنى موافقة ياأم سماح:

ضربت صدرها بيدها قائلة:

- وأنا أقـدر أرفض، أنتم أحسن ناس فى الحى كله، عـيب على قولة لأ..

قال أبو كامل:

- على بركة الله،

ثم قبل يده اليمنى وأردف:

- الحمد لله..

وقام، غسل يديه وفمه، توضأ، وأخذ عصاه فى يده قائلا:

- عن إذنكم، الحق أصلّى المغرب قبل آذان العشاء..

نظر كارم فى ساعة يده، قال لكامل:

- بقيت عشر دقائق على الآذان..

وغادر مكانه للوضوء بعد أن سأل أمه عن المصلّى، قالت:

- حالا أحضرها لك..

قام كامل هو الآخر مستأذنا:

- كلوا على راحتكم، أصلّى، وأضع براد الشاى على النار..

يدور حديث خافت بين سماح وأمها وأم كامل.. تبادلن كلمات المحبة والتآلف، رغم أنها المرة الأولى التى تجتمعن فيها معا..

***

بدأ توافد بعض الجيران والمعارف لتهنئة كامل بعودته سالما، إستأذنت أم سماح وصحبت ابنتها معها، جلست أم كامل فى المطبخ، مهمتها إعداد الشاى، قامت تتمطى بعد انصراف آخر ضيف، قالت وهى تجلس على الكنبة:

- ظهرى وجعنى من القعدة..

قال أبو كامل فرحا:

- كله يهون ياأم كامل وولادك بجوارك..

- دائما مفتوح بحسّك وحسّهم..

قال كامل وهو يتأهب للخروج:

- أزور أصحابى وأعرفهم برجوعى..

قال أبوه:

- لن تجد إلا صديقك صلاح، صابر فى ليبيا، وحسن تزوج وغادر بيت عمه..

- أزور عم حفنى، وصلاح إمام..

وانصرف، قام كارم مستأذنا هو الآخر، جلست أم كامل إلى جوار زوجها ورأساهما متجاورتان..

قال أبو كامل بعد فترة صمت:

- ياسلام.. الواحد ردت فيه الروح..

قالت أم كامل:

- أنا فى ورطة.. علىَّ أجهزٌ طلبات الفرح، وأعزم الناس، وعليك تقابل المأذون

وقال أبو كامل:

- خليها على الله، ننام، والصباح رباح..

(٢)

مشى كامل ببطء، يبدو عليه التردد، يلوم نفسه على تسرعه فى الخروج، الوقت تأخر، هل يذهب إلى بيت صابر حفنى أم يؤجل زيارته للغد؟، ربما يجد صلاح نائما، لن يدق الجرس إلا إذا تأكد من وجوده يقظا، يقف فى الشارع، إذا وجد ضوء أى من الحجرتين المطلتين على الشارع يصعد ويدق الجرس، ويعلن مفاجأة رجوعه من السفر..

وقف أمام المبنى تحت التشطيب فى الجرن، شكل البناء يوحى بأنه مدرسة، وقد تكون مستشفى، خطر بذهنه أن يمر على مقر الإتحاد الاشتراكى، هل يجد أحدا هناك؟، عند الخندق توقف، يرى أنوارا تنبعث من بابه، وبعض الفتحات فى سقفه، يحيط به عدة أعمدة بها لمبات يسقط ضوؤها على الحشائش فوق سطحه، وبناء

خشبى قرب الباب، اندهش، اقترب وجد بعض الأطفال يلعبون، يدخلون ويخرجون، بعض الرجال والنساء، حياة كاملة، تعجب ود لوصادف أحدا يعرفه ليسأله، ثم، تمنى أن يرى صلاح إمام ليعرف منه ما حدث..

وقف وسط الشارع، تطلع إلى الشرفة، ثم النافذة، لم يلمح أى ضوء، يريد أن يمشى وتدفعه أشواقه لصلاح أن يصعد الدرجات ويدق الجرس، تردد طويلا، قرر أخيرا الصعود وقف أمام باب الشقة، أرهف أذنيه، لا يسمع أى صوت، دق الجرس، مرة، مرتين، مرات، لا صوت، لا حركة، السكون والصمت، نزل الدرجات يفكر، هل يذهب إلى بيت أمه، أم يذهب إلى بيت الأستاذ سلامة والد زوجته مها؟

خرج إلى الشارع بين البلدة والمساكن الشعبية، وقف على الرصيف الأوسط يتأمل، يتجول بعينيه يمينا ويسارا، أمامه وخلفه، كل شئ ناله بعض التغيير، لم يجد شيئاعلى حاله سوى المساكن الشعبية، والشارع، فتش عن الشيخ علوان، لم يجده فى مكانه، مشى أماما وخلفا وعاد إلى موقعه، قال لنفسه «ربما بنى المسجد حوله، مازال تحت التشطيب، اقترب منه أطل من بابه إلى الداخل، لم يجد المقام...

مشى يجدد مارآه وهو فى السيارة مع سماح، محل كوافير جديد، «كوافير نوال»، محل حلاقة للرجال يافطته مازالت دون كتابة، مر على كل المحلات حتى موقف الأتوبيسات، وجد مقهى جديدا، خلف منضدة صغيرة جلس وطلب شايا..

الرواد قليلون، متناثرون، تطلع إلى إمتداد الشارع بعد الميدان، محطة أتوبيس واحدة عندها بيت الأستاذ سلامة، مازال على تردده لم يقرر بعد، أيذهب أم لا؟ تناول الشاى على مهل، يتابع بعض المارة على الرصيف، لاأحد من معارفه، لا من البلدة ولا من المساكن، هل يعود إلى البيت؟ هل يأتيه نوم؟، تبددت كل أحلام اليقظة التى راودته فى الطائرة، لم يكن يتوقع هذا الهدوء المخيم، الميدان الفسيح كان يزدحم بالناس، الباعة، السيارات فى حركتها الدائبة، دخل اثنان من الشباب إلى المقهى، جلسا حول منضدة، سمع أحدهما يقول للآخر:

ـ المقهى على غير العادة..

قال الثانى:

ـ لها أكثر من أسبوعين على هذه الحال.. الناس كلها حزينة..

تذكر كامل على الفور المحنة القاسية التى مرت، موت الرئيس، تذكر مارآه بعينى رأسه فى البلد الذى غادره اليوم، قبل أسبوعين تقبل من كل معارفه العزاء، رأى بعض الدموع، سمع بعض كلمات تعبر عن خسارة فقد الرئيس لشعبه وللشعوب الأخرى، نكست الأعلام، عدة أيام يبث فيها المذياع والتليفزيون القرآن الكريم، والأحاديث الدينية، أين كان كل ذلك فى ذاكرته، هل نسى؟ أم سيطرة الحب، واللهفة على لقاء الحبيبة وحدها كما طلب منها هى الشاغل الأوحد..

تطلع ناحية السوق، بعض لمبات الكهرباء متناثرة، عربات خشبية

ذات الصندوق، فوق عجلتين، بعضها خالية، بعضها مغطاة بمشمع أو سجادة من القماش، لمح شخصا يتمشى حوله، بيده شومة كبيرة، يبدو أنه حارسه، تخيله فى النهار يمتلئ عن آخره بالبائعين والمشترين، يأخذ السوق شكل مثلث رأسه عند الميدان، على شارع خلفى تشغل قاعدته محلات جزارة وأقمشة وأوانى حيث قاعدة المثلث، عند رأس المثلث يخرج من الميدان شارعان أحدهما شرقى والآخر غربى، يتسع المثلث بعد السوق ليشمل أرض الجرابيع، ثم الحى الذى يطلق عليه الكبار اسم البلدة، وبعضهم إسم المشيخة، أما الشباب فاعتادوا أن يطلقوا عليه اسم الحى، بعده تمتد أرض الفتوة وتليها أرض «أبو عمة».. على الجانب الشرقى للشارع الشرقى المساكن الشعبية، أما على الجانب الغربى للشارع الغربى فتمتد أرض غريب..

استعرض كامل جغرافية المكان، ابتسم وكأن صفحات التاريخ ماثلة أمام عينيه، يرى خريطة المدينة فى العهد الفاطمى وبها موقع الحى، حدده بالقلم ـ يومها ـ وأطلع عليه أمه وأباه وجدّه، كان فى المرحلة الإعدادية، مقرر عليهم دراسة الدولة الفاطمية..

نادى الجرسون، طلب قهوة، فى انتظارها تجول بعينيه بين يافطات المحلات وكلها تحمل اسم حبيبة صديقه الحبيب صابر، نوال، عرفها، إلتقى بها، إعتادت أن تصحب معها صديقتها هند، تطلب من صابر أن يصحبه وأن يشغل عنهما هند، فهى بينهما تقطع مايودان وصله، تحول دون أن يبث فى أذنى نوال مايشعر به

من عاطفة، إصطحبهم كامل فى نزهة تمشية على النيل، يسحب هند بعيدا عنهما، يغض الطرف عن غضبها، وتبرمها لكنه لايأبه فمهمته قاصرة على الإبتعاد بها.

تناول القهوة، نفح الجرسون حسابه، قام يتمشى إلى البيت وهو لايصدق، هل هو فعلا فى بلده، مسقط رأس أمه، بين أهله وخلانه ومعارفه، فى الصباح كان بعيدا آلاف الأميال سبحان مغير الأحوال..

يندهش، كلما أطلتّ فى ذاكرته سنوات الغربة المريرة تبددت سريعا، كأنه يكرهها، كما يكره الذى ينجو من غرق رؤية البحر أو النهر أو الترعة.. عاد إلى البيت، خلع ملابسه، ارتدى بيجامته، اضطجع فوق فراشه القديم، شبك كفيه تحت رأسه، يتطلع إلى السقف، تتراءى له سماح، ولحظات قضتها معه وبين أسرته.. تراءى له الغد كأطياف، ألحّ عليه إرهاق جسده فاستغرق فى النوم..



(٤)

استيقظ كامل قبل العاشرة بقليل، دخلت أمه إلى المطبخ لإعداد الإفطار، تبعها وسألها عن أبيه ردت قائلة:

- ذهب إلى الجمعية يشترى بعض لوازم البيت..

ألح إلى إنتظاره ليفطروا معا، قالت:

- لم يغير عادته، يفطر مبكرا..

دوما يستيقظ أبوه فى السادسة، يتوضأ ويصلى الصبح، يخرج إلى المطعم لشراء الفول والطعمية والخبز، يتناول إفطاره مع أمه، ثم يوقظه فى السابعة ليصلى ويفطر ثم يذهب إلى عمله..

إتجه إلى الشرفة، يتطلع إلى الناس فى الشارع، البيوت، النوافذ والشرفات، بعض الصبية والأطفال يلعبون، بعض النساء فى طريقها إلى السوق، أو عائدات منه تحملن فوق رؤوسهن وأيديهن

مشترياتهن، حاول التطلع ناحية بيت سماح، تذكر ماأخبره كارم من شرائها لبيت أم سعد وبنائه ونقل أمها إلى الدور الثانى منه، فكر لحظات، ثم خرج من الشقة صاعدا إلى السطح، لفت نظره بناء بيت عزوز بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح، على مبعدة رأى سماح واقفة فى الشرفة، أشار إليها بيده، فهمت ماتعنيه إشارته، هزت رأسها بالموافقة، ألقى نظرة على أسطح البيوت وجدها كلها قد ارتفعت دورا أو دورين أو ثلاثة أدوار..

التقى بها عند باب الشقة، دخلت وراءه، قال لأمه وقد انتهت من وضع الطعام فوق الترابيزة الصغيرة:

ـ تعالى كلى معنا..

قالت وهى تتجه نحو المطبخ ثانية:

ـ الحمد لله، أكلت مع أبيك، سأعد لكما الشاى..

أكل كامل بشهية، يشعر بالسعادة وافرة، عاش طويلا يعانى الحرمان من وجبة إفطاره التى اعتادها، الفول، الطعمية، المخلل، يشعر بفرحة جسمه لرجوعه إلى قوته الحميمى طول العمر، وتتغذى روحه بمشاركة حبيبة القلب والروح معه، بسمتها، ضحكتها، هزة رأسها، شفتاها، عيناها، أذناها، جبهتها، جيدها، صدرها، قوامها، يتأملها، حورية من حوريات الجنة، تعلقت عيناها بعينيه:

ـ الأكل أمامك على الترابيزة..

قال ردا على تلميحتها الذكية:

ـ يدى تعرف مكانه، وتعرف أيضا طريق فمى..

تروح أمه وتجيئ، تدخل الشرفة، تعود، تذهب إلى المطبخ، تعود إلى الصالة، أمسك كامل بكم جلبابها:

ـ ياأمى، اقعدى معنا..

قالت باسمة:

ـ أقعد، وشغل البيت من يقوم به..

قالت سماح:

ـ اشرب الشاى وأقوم اساعدك..

نقل كامل عينيه بين أمه وسماح وقال:

ـ يعنى وجودى غير مطلوب.. على كل حال أنا خارج،... نظرت إليه عينا سماح معاتبة، أردف قائلا:

ـ أقضى مصلحة تهمنى.. لاتذهبى حتى أعود..

***

يعرف كامل الطريق جيدا، لطالما ذهب إليه فى مكتبه، يجلس معه بعض الوقت حتى ينهى أعماله، وتحين ساعة الإنصراف، يخرجان معا، يركبان الأتوبيس فى عودتهما إلى بيتيهما، يعانَيان الزحام، يختلطان بمختلف ألوان وأنواع البشر، يفرح كامل بحلول شهر رمضان المبارك، يخرج من عمله فى تمام الساعة الثانية، مثله يخرج صلاح إمام، يلتقيان فى ميدان التحرير، يتمشيان حتى محطة الإسعاف، يركبان الأتوبيس فى طريقه إلى التحرير، يحصلان على مقعدين متجاورين، يعود بهما الأتوبيس قاطعا رحلة العودة، وسط الزحام الشديد، يصلان قبل آذان المغرب بوقت قليل، لايحسان بجوع أو عطش، هكذا دائما تمضى أيام شهر رمضان، لم

يشعرا قط فى أيامه بجوع أو عطش إلا يوم الجمعة، الإجازة الأسبوعية، فكانا ينضمان إلى حسن فخرى، وصابر حفنى ويقفان قرب الميدان، أو يتمشيان حتى النادى جيئه وذهابا حتى يقترب موعد الافطار..

حيَّا موظف الاستعلامات الذى تلقاه مرحبا:

- أهلا أستاذ كامل، لم أرك منذ مدة طويلة..

- كنت بالخارج.. هل صلاح موجود؟

- فى مكتبه.. تفضل..

يعرف الطريق إلى المكتب جيدا، نقر بإصبعه على الباب نقرا خفيفا، ثم دفعه، هب صلاح إمام واقفا، بسمة عريضة فوق شفتيه، خرج من وراء مكتبه واندفع نحو كامل فاتحا ذراعيه على سعتيهما، صارخا:

- معقول.. حبيبى، ألف حمد الله على السلامة.. متى عدت؟

- يوم أمس..

تبادلا الأحضان والقبلات، دعاه صلاح وأجلسه على كرسى من الجلد، لف من الناحية الأخرى وجلس إلى مكتبه، قال سعيدا:

- واحشنى يامضروب ماأخبارك؟ كنت أكتب لى أقابلك..

- لم أرد إزعاجك.. أخيرا تلاقينا..

وهو يدق الجرس سأل:

- أتشرب شايا، قهوة، كوكاكولا....

دخل عامل البوفيه بعد طرقة خفيفة على الباب، قال له صلاح:

- كامل صديقى، هل تذكره؟

ـ طبعا .. طلبات حضرتك..

قال كامل:

ـ شاى..

انصرف عامل البوفيه، أردف كامل:

ـ لعلع مها وماهر بخير، أحضرت له هدية تناسب سنّه..

قال صلاح وهو يقلب بعض الأوراق أمامه..

ـ الولد صابر واحشنى بجد.. حسن عديم الأصل لم أره منذ تزوج..

قال كامل:

ـ سألتك عن مها وماهر..

قال صلاح بعد تردد:

ـ بخير.. بخير..

أحس كامل بمرارة فى كلمات صلاح، دخل عامل البوفيه، وضع الشاى وانصرف، قال بعدما رشف بعض الماء:

ـ أشعر بشئ مافى ردّك.. هل هما بخير فعلا؟ مررت بشقتك ليلة أمس ووجدتها غارقة فى الظلام..

ـ أعود متأخرا..

ثم أردف:

ـ مها وماهر عند حماى.. تظننى أذهب إليها واستعطف أباها، من رابع المستحيلات.. انتاب كامل شئ من الحزن، تناول الشاى فى صمت، ينظر بين الحين والحين إلى صلاح وهو يؤدى عمله، يقوم، يغادر المكتب وبيده بعض الأوراق، يعود بغيرها، قال بعد صمت طال:

- أحكى لك على الغذاء، نتغدى سويا اليوم..

قال كامل:

- لا .. ورائى...

قاطعه صلاح:

- لاتحاول، لن أقبل أى أعذار.. لن أؤخرك، أنهى بعض الأوراق وأستأذن..

تناول كامل الصحيفة، يقرأ العناوين.. «برقيات تأييد للسيد رئيس الجمهورية من طوائف الشعب المختلفة، الرئيس يطلب عقد اجتماع للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى، مازالت وفود الشعب تزور ضريح الزعيم الخالد، وفد كبير من الاتحاد السوفيتى يزور مصر، جبهة القتال مع العدو الصهيونى هادئة.....»

غادر صلاح مقر عمله يصطحب كاملا معه، أوقف تاكسيا، ركبا، أمر السائق بالتوجه إلى شارع فؤاد، علق السائق ضاحكا:

- سابقا يابيه..

قال صلاح:

- ٢٦ يوليو ولاتزعل..

غادرا التاكسى، مشيا بضع دقائق، دخلا كافيتريا، إتخذا مجلسهما بجوار نافذة تطل على الشارع المزدحم بالسيارات والمارة، قال صلاح:

- إذا أردت رؤيتى بعد ميعاد العمل تجدنى هنا..

جات المضيفة مرحبة:

- أهلا ياصلاح بيه..

هز رأسه ردا على تحيتها وقال:

ـ مثل كل يوم، طلب لى وطلب للبيه..

قالت وهى تنصرف:

ـ تحت أمرك..

أخرج صلاح علبة سجائره من جيبه، وضعها فوق المنضدة، فوقها علبة كبريت، قال متسائلا:

ـ كيف حالك فى الغربة؟

ـ دعك من غربتى، حدثنى عن مشكلتك مع مها..

أخرج صلاح سيجارة، أشعلها، نفث دخانها فى الهواء، قال:

ـ مشكلة عادية، حدثت كثيرا، لكن أعقبها تصرف غبى أحمق منها ومن أسرتها..

تلوَّن وجهه بحمرة الغضب واستطرد:

ـ تخيل نفسك مكانى عندما تعود من عملك فتجد شقتك خالية من كل أثاثها، ملابسك ملقاة على الأرض.. ماذا تفعل؟

ـ معقول ياصلاح!!

ـ ويحكى لك الجيران ماحدث، فضيحة ياأستاذ..

ثم تنهد فى ضيق:

ـ من حسن حظهم عدم وجودى وقتها..

ثم صمت وهو يتابع المضيفة وهى تضع أطباق السلاطة، الكباب، وزجاجتى بيرة، بعدما انتهت:

ـ أى خدمة أخرى؟

ـ شكرا...

قالها صلاح، أمسك زجاجة البيرة، ملأ كوبه، رشف عدة رشفات، قال:

– أيرضيك هذا تصرف؟

ـ بالقطع لايرضينى.. وأعتقد أن هذا تصرف أبويها، لاأتصورها توافق على هذا التصرف.. ألم تحاول الاتصال بك؟

ـ آه، كنت مثلك أبرر لنفسى تصرفها، لكنها لم تحاول الإتصال بى، وتبرير ماحدث.. عندما اعترض الجيران على تصرفه قال: «لما يسدد ديونه نعيد إليه أثاثه وزوجته»..

ـ الأستاذ سلامة مخطئ تماما فى هذا التصرف..

مع تناول الطعام، يقص صلاح التفاصيل الصغيرة، يلوم مها، يعتب عليها، يعلن أنها إذا طلبت الطلاق يطلقها..

قال كامل:

ـ لاياصاحبى، إلا الطلاق، أنا لاأقبل رعاية الأستاذ سلامة لابنك.. أنت تعرفه، لا يرعى إلا نفسه، أولاده أنفسهم يكرهونه.. معلومات تعرفها أنت أكثر منى..

والمضيفة تجمع الأطباق، طلب صلاح زجاجة بيرة أخرى، وطلب مثلها لكامل، اعترض كامل وطلب قهوة، قال صلاح:

ـ تعرف أنى أعمل فترة ثانية بعد الظهر، أقضى فترة الظهيرة هنا، ثم أعود للمكتب حتى التاسعة أو العاشرة، بعدها أمتع نفسى، لم يعد يهمنى بيت ولاأسرة، يكفى، حملنا الهموم على أكتافنا طويلا، لنعش كغيرنا..

قال كامل فى استياء ولوم:

ـ لاياصاحبى، لكل مشكلة حلّ، ألا تشعر بفقدك لابنك..؟

ـ الليل ينسينى كل شئ..

ـ أتشرب الخمر ياصلاح؟

قال ضاحكا:

ـ وهل يقدم فى الكباريه الشاى أو القهوة..

رمقه كامل بإمعان، قال:

ـ لاأصدق أن أمامى صلاح إمام.. أنت شخص آخر..

ـ لماذا؟ لأننى حر، أفعل ماأشاء، وقتما أشاء..

ـ كباريه، خمر، لا .. لاأصدق..

ـ أدعوك الليلة لتصدق، ماعليك إلا انتظارى فى العاشرة أمام كباريه.......

قال كامل غاضبا:

ـ دع عنك هذا الهراء، أنتظرك فى بيتى، عندى أخبار تهمك..

ـ قل أخبارك..

ـ أعقد قرآنى يوم الخميس..

ـ بهذه السرعة، أين قابلتها أو قابلتك؟، أكانت رفيقة غربتك؟

ـ تقريبا..

ـ ألف مبروك.. أحضره بالتأكيد.. فى أى ساعة؟

ـ حوالى الثامنة..

ـ أكون عندك قبل الموعد، من حسن حظك لاأعمل مساء يوم الخميس..

استأذن كامل، قال متعللا:

- الوقت ضيق، ورائى أعمال كثيرة..

صافحه صلاح وأكد على حضوره عقد القرآن يوم الخميس، قال:

- أى وقت تحتاجنى، تعرف مكانى.. اتفقنا..

هز كامل موافقا، غادر الكافتيريا مغتما، يصول فكره ويجول..

(٥)

نزل كامل من السيارة الأجرة عند الناصية، تطلع إلى صفّى المنازل، إلى اليمين بعد أربع أبواب يدخل بيت أسرة صابر، تتارعه مشاعر قلقة، خجلة، يدفع به الحب لأسرة صديقه، ويصده الحياء والوجل، لايدرى لماذا؟ ربما لأنه سيكون سببا فى إيقاظ مشاعر الأبوة والأمومة والأخوة، وينعش غياب صابر فى عقل الأسرة، يدرك أن ذلك يحدث غالبا، كما يدرك أنه حدث فى أسرته أثناء سفره، وقد كتب له صابر عدة مرات، أنه يلقى فى زيارته للأسرة كل الترحيب لكنه يلحظ تأثر الأب لغياب ابنه، بل ويرى دموعه وهو يردد فى كل زيارة:

ـ أدعو الله أن يطيل فى عمرى وأرى كامل مرة أخرى..

بعد التردد يرى أن الواجب فوق كل المشاعر، يخطو نحو البيت، يوقفه أمير بالنداء عليه:

- أستاذ كامل، انتظر..

وقف كامل، أمير صديق أيضا، يعرفه جيدا، شاب على سمته خلق وطيبة، ودود إلى أقصى الحدود، كان يودّ أن يكون عضوا فى زمرة الأربعة، يشعر بالفخر للوقوف معهم، يتمنى أن يخرج معهم، يسهر معهم، يستفيد من أفكارهم، يكتسب من مشاعرهم، يدرك كامل ذلك كله، وكان ينظر إليه نظرته إلى أخيه الأصغر كارم..

فوجئ كامل بأمير يحطم فى نفسه كل الحواجز الوهمية، يحيطه بذراعيه ويقبله مهنئا:

- ألف حمد الله على السلامة..

- أشكرك ياأمير..

- سفرية موفقة، أتمنى أن تكون قد حققت بعض الأمنيات..

ثم أمسك بيده:

- نشرب معا الشاى..

قال كامل:

- واجب أن أزور أسرة صابر لأطمئن عليها وعليه..

- بعدما نتناول الشاى..

- أم صابر لمحتنى من البلكونة، أعتقد أنها فى انتظارى عند باب الشقة..

قال أمير وهو يخطو بجواره:

ـ هيا بنا، كنت على وشك الذهاب لكتابة خطاب لصابر، طلبنى عم حفنى وقلت له حاضر..

صعدا الدرجات، وكما توقع كامل وجد باب الشقة مفتوحا، أم صابر واقفة وسط الصالة وبجوارها بنتاها فتحية وروميه، ترتسم على الشفاه بسمات مرحبة، وتنهال كلمات التهنئة بالعودة سبقه أمير وحيا عم حفنى، دخل كامل مندفعا وهو يرى عم حفنى يحاول القيام، انحنى وقبله قبلات حنو نتاج الحب والصداقة، ربت عم حفنى كتفيه وقال:

ـ أهلا ياابنى الثانى..

قال كامل وهو يجلس بجواره، خلفهما النافذة:

ـ البركة فى عمر وعلاء..

ـ لا.. عمر وعلاء أولاد أمهم..

وضحك عم حفنى حتى دمعت عيناه، يقول مغمغما:

ـ ربنا يفرحنى بعودة صابر..

ربت كامل كتفه المجاور له وقال:

ـ إن شاء الله ياعم حفنى.. إن شاء الله..

جفف عم حفنى دموعه بكم جلبابه وقال:

ـ طلبت أمير ليكتب خطابنا إليه..

قال أمير مداعبا:

ـ أنا تحت أمرك يارجل ياعجوز..

قال عم حفنى ردا على مداعبته:

ـ يعنى أبوك فى عزّ صباه، أنا أكبر منه وأقوى صحة عنه..

ـ فعلا والله ياعمّ حفنى، أبى قضت على صحته الهموم..

قال عم حفنى:

ـ الهموم تقتل من يستسلم لها، أبوك استسلم..

ثم نظر إلى الصالة وصاح:

ـ الشربات يابنت..

قامت أم صابر، اقتربت من باب حجرة الكنب قالت:

ـ نشترى شربات، الغالى يرخص للأستاذ كامل..

قال كامل ردا على مجاملتها الحانية:

ـ تعيشى وتسلمى ياأم صابر، الشربات نشربه إن شاء الله يوم رجوع صابر.. يكفى الشاى..

قال عم حفنى:

ـ فيك الخير ياابنى، صلاح الله يسامحه اختفى.. لم يعد يسأل عنا..

قال أمير فى شئ من الحيرة:

ـ لاأعرف أين يقضى وقته، لايعود إلا قرب الفجر، ويخرج فى موعد الشغل.. علق عم حفنى قائلا:

- كان الله فى عونه، مشكلته صعبة..

قال كامل:

- كنت معه فى الصباح فى المكتب، ربنا يقدرنى وأساعده فى حلها..

قال أمير، وشئ من الانزعاج يتملكه:

- الأستاذ سلامة رأسه ناشفة جدا.. حاولت معه بشتى الطرق وفشلت كلها..

نظر كامل إلى أمير مليا ثم قال:

- مها مارأيها فيما حدث ياأمير؟

- يبدو أنها واقعة تحت ضغط كبير، لومها كله على صلاح..

وضعت رومية صينية الشاى بين كامل وعم حفنى، داعبها كامل قائلا:

- متى نفرح بك يارومية؟

- إن شاء الله قريبا..

قال عم حفنى وهو يشيعها بعينيه:

- ابن خالتها طلبها، وربنا يسهل..

- وفتحية؟

- تنتظر نصيبها..

- اسمح لى أسألك ياأستاذ كامل: ماانطباعاتك عن الغربة؟

قال كامل فى مرارة:

- انطباعات مؤلمة ياأمير، أنا قبلت أرض المطار ياأمير، قبلتها وكأنى خرجت من بحر هائج وماكنت أصدق بالنجاة.. موضوع يطول شرحه.. يهمنى أخبارك؟

- الحمد لله، تخرجت وعملت فى التأمينات..

تدخل عم حفنى قائلا:

- الأستاذ أمين الله يكرمه ساعدنى فى صرف معاشى.. صرفت المعاش بعد شهرين، غيرى ينتظر بالشهور..

ثم رشف عدة رشفات من كوب الشاى واستطرد:

- أوراق أخوك صابر هى مشكلتنا الآن، ألا تعرف واسطة تنهيها؟

قال كامل:

- وصلاح؟

قال عم حفنى:

- صلاح، صلاح نسينا.. لعل مشكلته...

قاطعه كامل قائلا:

- صلاح لايتهاون فى أمر كهذا.. على كل حال سأسأله وأعرف ماوصل إليه..

قال عم حفنى:

- أنا سألت وعرفت أنه حسب القانون يجب خروجه.. خصوصا وأن علاء مطلوب أول يناير.. أنا أفرح بدخول علاء الجيش، لكن صابر..

قال كامل:

- لعل دخول علاء يقصر مشوار صابر.. تعشم خير ياعم حفنى..

رفع عم حفنى صوته مناديا:

- يارومية، تعالى خذى الصينية وجهزى كراسة أو ورقة وقلم نكتب الرد لصابر..

قال أمير:

- معى القلم، تحضر ورقة..

جاءت رومية بكراسة قدمتها لأمير، حملت الصينية وغادرت الحجرة مبتسمة ردا على ابتسامة كامل..

الشئ الغريب الذى يلحظه كامل دائما أن رومية لاتعرف غير الابتسام، حتى فى حزنها وأحيانا بكائها تبدو البسمة مرتسمة على شفتيها، يلاحظ ذلك منذ كانت صغيرة، وهاهى مازالت تحتفظ بنفس البسمة، ودوما يرد على إبتسامتها بابتسامته، وسرعان كعادتها ماترخى عينيها وتهرول خارجة أو منصرفة من أمامه..

والأغرب أنه لم يفكر يوما فى الزواج بها، رغم ملاحظته إبداء بعض الاهتمام فى تصرفاتها لنحوه، كلما دخل البيت، وكان يرد على خاطره بأنها صغيرة وفارق العمر بينهما كبير..

تذكر كامل سماح، تركها بالبيت، مر الوقت سريعا، ترى ماحالها الآن وهى تنتظره؟ قام مستأذنا، قال عم حفنى:

- فيم العجلة؟

- عندى بعض المشاوير..

- لو كان صابر هنا أكنت تتعجل؟

قال كامل:

- كنت أخذته معى، أنتم جميعا مدعوون لحفل زواجى.. لابد تشرفنا ياعم حفنى والعيلة كلها يوم الخميس بإذن الله.. وأنت ياأمير لاتتأخر..

قال عم حفنى فى أبوّة مفعمة بالمشاعر الدافئة:

- والله فرحتنى ياكامل..

دخلت أم صابر وخلفها فتحية وورمية فرحة وقالت:

- ألف مبروك وربنا يتمم عليك بخير ياابنى..

وهنأته كل من فتحية وورمية، أكد على دعوته، وهمّ بالانصراف، قال أمير وهو يصافحه:

- مفاجأة سارة ياكامل، أخوك أمير مكان صابروصلاح وحسن..

ـ بالمناسبة أتعرف أخباراً عن حسن؟

قال أمير:

ـ عرفت من ابن عمه أنه يعمل مدرسا في بلدة اسمها طناح بالمنصورة..

قالت أم صابر:

ـ بعد بلدنا بمسافة، أظن أنها في طريق دمياط

قال أمير:

أكثر من ثلاث ساعات سفر..

....

ـ ربنا يوفقه..

قالها كامل، وهويتهيأ لمغادرة البيت، وعاد يكرر:

ـ لا تتأخروا يوم الخميس..

(٦)

تمر بمخيلة كامل رحلة الـ١٢ ساعة، قبل ٢٤ ساعة من حفل زواج صلاح إمام قال صلاح وهو فى غاية الغضب على حسن فخرى:

- الجبان قال لى أنه سيكون هنا ويقضى العيد معنا..

قال صابر:

-قد يأتى اليوم أوغدا..

تنحنح صلاح وقال:

- حتى منتصف الليل، إذا لم يحضر أسافر له..

قال كامل مندفعا:

- أجننت، تسافر للمجهول.. لا تعرف غير اسم القرية، لا تعرف طريقها ولا...

قاطعه صلاح قائلا:

- نركب من مطار المنوفية، ونسأل، نجد من يدلنا..

قال صابر مؤيدا:

- والله فكرة، نعمل له مفاجأة..

رد كامل مترددا:

- هو الجنون بعينه، صباح العيد ونترك أهلنا ونسافر..

قال صلاح:

- نعتبرها رحلة أول يوم فى العيد،نعود آخر النهار.. ما المشكلة؟ بين أخد ورد، اختمرت الفكرة الطارئة فى أذهان الجميع، قرروا السفر إلى قرية.... لزيارة حسن فخرى واحضاره معهم لقضاء بقية أيام العيد وحضور حفل زواج صلاح إمام.. ذهب كامل، وصابر إلى بيتيهما، ارتديا ملابس العيد، أخبرا أسرتيهما بغيابهما حتى عصر يوم العيد، قال أبو صابرلابنه:

- طيش شباب..

اجتمعوا ثانية، عند الخامسة اتجهوا إلى موقف سيارات السفر، سأل صلاح عن السيارة التى تمر بالقرية، أحضر صابربعض الساندوتشات «فول وطعمية» من مطعم مجاور، تأكد صابر بالسؤال مرة أخرى عن السيارة، جلسوا داخلها، تناولوا إفطارهم فى صمت، كامل ينظر من النافذة يراقب الطريق، صلاح يفكر فى مها وحفل الزواج، وصابر يلقى برأسه إلى الخلف مغمضًا عينيه..

مد صلاح يده بسيجارة فوق مسند المقعد الأمامى، لكز صابر فى كتفه، تنبه صابر والتفت رأى السيجارة قال لصلاح:

- لا أريد التدخين..

عاود صلاح الجلوس وقال لكامل:

- يبدو النوم غلبه..

قال كامل:

- يا بخته، لا يغلبنى النوم فى سفر أبدًا مهما كنت مرهقا..

تناول سيجارته من صلاح، وعاد يتابع الطريق،.

سنوات وسنوات، لم يعرف كامل أو صلاح أوحسن أوصابر للنوم قدره، طوال تلك السنوات اعتادوا نوم الظهيرة ثلاث أو أربع ساعات، بعدها يمتد السهر حتى الرابعة صباحا، ثم يؤوب كل منهم إلى بيته وينام ساعتين، يقوم بعدها إلى المدرسه، وبعد انتهاء الدراسة، يستمر هذا النهج بعد الحصول على العمل،لا يهتم بلوم أبيه:

- ياابنى السهر مضر للصحة.. إعط جسدك حقه فى الراحة..
لا يأبه كامل بنصائح أبيه،.

ويقول عم حفنى لابنه صابر:

- السهر أيام المذاكرة مقبول، الآن لماذا؟

يرد صابر قائلا:

ـ تعودنا على السهر..

لم تكن الأسر تخشى على أبنائها من السهر، تثق كل أسرة فى سلوكيات أبنائها، كان أبو كامل يتابع مناقشاتهم عندما يجتمع الأربعة فى بيته، يتناهى إلى أذنيه نقاشهم فى أمور يراها أكبر من سنهم، يذكر نقاشهم حول عاطفة الأم وعاطفة الأب نحو الأبناء، أيهما أكثر وأيهما اقل ويمتد بهم النقاش طويلا، يأخذ أعماقا سحيقة، من يبرهن على صحة رأيه بآراء طالعها فى كتاب، ومن يبرهن من الواقع، ويذكر عم حفنى عندما يدعو صابر أصدقاءه للسهر فى بيته، يتناهى إلى أذنيه نقاشهم حول قصص الحب، وأيهما أفضل للشاب أن يكون محبا أويكون محبوبا، ويشتد بينهم النقاش، ثم يتحدثون عن قصص الحب فى السينما، ويسمع عما لم يره فى حياته، وكأنه يشاهد المناظر التى يحكون عنها..

يراقب كامل الطريق ويتذكر حواراتهم حول القضايا العميقة، فى الحب، فى السياسة، فى الدين، فى المشاكل السطحية والعميقة.. يجتاز الأتوبيس القرى، ويرى تعرجها، والبيوت فى جانب منها والترعة فى جانب آخر، يشهد الصبية الصغار فى ملابسهم الجديدة، يخرج من القرية، يتبدد الغبارو يصفو الجو، تهب نسمات الهواء الرطبة المحملة بالندى، يتناول أنفاسا يشعر بعدها بالانتعاش..

تنبه صابر وسأل السائق:

– لا تنسانا يا أوسطى، نبهنا عند قرية....

قال السائق معتذرا:

- الحقيقة غيرنا خط سيرنا مضطرين، القنطرة الموصلة إلى طريقنا الأصلى مهدومة..

قال صلاح مغتاظا:

- والعمل.. نحن غرباء..

قال السائق:

- ما بيدنا يا أستاذ، على كل حال عند أقرب طريق للبلدة أنزلكم..

بعد قليل توقف السائق وقال وهو يشير إلى طريق يسار ترعة كبيرة:

- هذا الطريق يوصلكم إلى قرية....

نزلوا من الأتوبيس، يضحك صابر وهو يقول من خلال ضحكاته:

- اشرب يا أبو الأفكار النيرة..

يقول كامل:

- ربنا يستر ونصل بسرعة..

مشوا يتجاورون أحياناً، يتباعدون أحيانا أخرى، يقترب كامل من شط الترعة، يقترب صابر من حافة الحقول، بينما صلاح يسير فى خط مستقيم، لا ينظر يمنة ولا يسرة، وإنما تسافر عيناه إلى الفضاء، يفاجئهما قائلا:

- نقترب من قرية، ادعوا الله أن تكون هى..

بين حين وحين يضحك صابر، صلاح ينظر إليه متلمظا ويصيح:

- الضحك من غير سبب قلة أدب..

وبعد مسافة طويلة لاحت قرية ثانية، قال صلاح:

- أعتقد أننا اقتربنا..

يضحك صابر بصوت مرتفع، يهم صلاح بضربه، يقول صابر:

- سمعت ونحن فى الأتوبيس أن المسافة حوالى سبعة كيلو متر حتى القرية..

صاح صلاح فى غضب:

- يانهارك الأسود..لم لم تخبرنى..

قال صابر:

- خشيت إخبارك لأننى أعرف تصرفك..

- وما هو تصرفى يا فالح؟

- ننتظر الأتوبيس العائد ونعود لا حصّلنا ولا وصّلنا..

رفع صلاح ساقه ليركله، ابتعد صابر، قال كامل:

- نسميها علقة يوم العيد..

التفت صلاح خلفه، لاحظ اقتراب شابين فى زى الجيش قال مبتسما:

ـ نسألهما..

أبطأوا خطواتهم حتى حاذاهم الجنديان، قال صلاح:

ـ لو سمحت يادفعه؟ أمازالت قرية.... بعيدة؟

لم يتلق ردا، سبقهم الجنديان، قال صابر:

ـ يمكن غرباء مثلنا..

لم يتلق ردا، قال كامل:

ـ يادفعة، مجرد سؤال..

تبدد أمله فى أن يتلقى ردا أو حتى التفاته من أحدهما، قال صابر مغتاظا:

ـ ياأخى رد وخذ لك قرشا.. طيب بريزة، طيب..

قال صلاح وهو فى قمة غضبه:

ـ لو سألنا حمارا لرد علينا نهيقه..

يقول صابر:

ـ انطق يابجم أنت وهو..

تزداد المسافة، ولايكف صلاح وصابر عن السخرية منهما:

ـ الظاهر النكسة أصابتهما بالصمت..

يقول صلاح:

ـ ربما الكلام هنا ممنوع يوم العيد..

اقتربوا من قرية، انتبهوا، أبطأوا خطواتهم، توقفوا ورهط كبير من الرجال يقطعون الطريق فى صمت، يلبسون جلابيبا نظيفة، مختلفة الألوان، فوق رؤوسهم الطواقى، ينهبون الأرض جماعات جماعات، مالوا جميعا وسط الحقول وانكمشت الجماعات إلى صف طويل يتلوى كثعبان بين المزروعات ...

تابعوا سيرهم، وإن كانت عيونهم تتابع الصف المتلوى، قال صابر:

- منظر غير مألوف ترونه لأول مرة..

قال صلاح:

- خشيت أن يكون بينهم الجنديان..

ثم أردف ضاحكا:

- أعددت نفسى للعودة جريا، ياروح مابعدك روح..

قال كامل:

- أنا فكرت فى الترعة، وبدل مايضربونى ينقذونى من الغرق..

قال صابر:

- جبناء.. أنتم جبناء.. هذه عادة أهل القرى، يخرجون جميعا صباح يوم العيد للمقابر زيارة الموتى، بعدها يعودون لبيوتهم، فى بلدنا نفس الصورة بعد صلاة الفجر والعيد لابد من زيارة المقابر..

قال صلاح:

- عادة....

لم يكمل وحث الخطى ليلحق بصبى يركب حمارا، استوقفه وسأله عن القرية..

أشار الصبى بعصا فى يده إلى نفس الإتجاه الذى يسيرون فيه، وقال:

- اترك أول عزبة، هى الثانية بعدها..

توقف صلاح حتى لحقا به، أشار كما أشار الصبى وقال:

- هانت.. والله ياحسن لأدفّعك الثمن..

كانت المفاجأة مذهلة لحسن فخرى وكل أهل قريته، لقيهم بالقبل والأحضان، معربا عن دهشته لمجازفتهم، وسعادته بزيارتهم، قدمهم إلى أهله، إحتفوا بهم كثيرا، أخذ يسأل عن مشقة حضورهم، يعرف أن الأتوبيس غيَّر طريقة بسبب القنطرة المتهدمة، قال صلاح:

- نفسى أخلّص تعبنا على جتتك.. لكن الأمر لله..

تناولوا الإفطار، خرجوا إلى الحقول، اجتمعوا عند الظهر، أغلق حسن فخرى النافذة المطلة على المصطبة، وأغلق الباب وقال:

- تمددوا، خذوا راحتكم..

قال صلاح:

- أى راحة يافقرى، أفكر فى همّ رجوع كل تلك المسافة..

- أحضر لكم ركايباً..

فقال صابر ضاحكا:

- ومن يسحبها طبعا..

قال حسن ضاحكا:

- لاياجميل.. الركايب توصلكم واتركوها تعود وحدها..

قال صلاح:

- وإذا مالت على الغيط، أو نزلت الترعة، ماالعمل؟

قال كامل:

- أنا أفضل ركوب قدمى..

قال حسن فخرى:

- أنتم معنا اليوم، غدا نسافر كلنا..

- لايمكن طبعا، أنا عندى مشاغل، أنسيت؟ فرحى بعد غد..

- لابد أنام فى بيتى..

قالها صابر، وعقب كامل:

- وأهلنا، أنا عن نفسى قلت سأرجع فى نفس اليوم..

قال حسن بعد أن خرج وعاد:

- الجماعة متمسكون ببياتكم معنا..

قال صلاح:

ـ الجماعة فى إمكانى إقناعهم بسهولة، إياك تتدخل بأى كلمة..

قال حسن:

ـ والله، أنت وعمى وأنا خارج الموضوع..

تناولوا الغداء، وخرجوا، جلسوا على المصطبة، اجتمع لفيف من أهل القرية، يرحبون ويصممون على دعوتهم إلى بيوتهم، يعتذرون، إستطاع صلاح إقناع عم حسن فخرى بضرورة العودة فى نفس اليوم، ودعهم حسن فخرى بعد أن قطع معهم نصف الطريق، وعدهم بالحضور فى الغد، وقضاء بقية الأجازة بينهم..

ضحك كامل وحده، بعد أن مرت بانوراما الرحلة فى ذهنه وأمام عينيه وفى لحظات، وعلى إمتداد بضع خطوات، تنبه لنفسه وهو يجتاز الشارع الموصل إلى الشارع الدائرى ثم إلى بيته..

لقيته سماح مغضبة، يقترب، تبتعد، يتكلم تضع إصبعين فى أذنيها، يمسك بيدها تجذبها من يده، تتجه نحو باب الحجرة يسد عليها الطريق، قالت متبرمة:

ـ دعنى ياكامل أرجوك..

أفسح لها الطريق، اتجه إلى الشرفة، وقف يطل على الشارع، اقتربت سماح منه قائلة:

ـ لأجل أصحابك نسيت أحبابك..

التفت كامل وقال:

- أنت تعرفين، سنوات طوال ولم أنسك ياسماح، من المفروض أن تسمعي عذرى..

- قلقت عليك..

- قضيت عدة مشاوير هامة..

قالت وهى تنظر إلى قدميه:

- على كل حال أنا آسفة..

قال كامل وهو يمسح شعرها براحة يده:

- أنا آسف ياسماح.. غصب عنى.. صديقى صلاح عنده مشكلة صعبة، زرت بيت صديقى صابر، والتقيت بصديقى أمير، و...

قالت سماح:

- أنا لاأحاسبك ياحبيبى، كل مافى الأمر أننى افتقدتك، أحسست أنى تائهة.. اسأل أمى عن حالى..

اقتربت أمه منهما وقالت:

- رفضت الغداء معنا بسبب تأخرك..

قالت سماح:

- الحقيقة ياأمى، أم سماح فى انتظارى على الغداء..

قالت أم كامل:

ـ يعنى ضحكت علينا وقلت أنتظر كامل..

ـ فعلا أنا فى انتظاره لنتغذى مع أمى.. تسمحى لنا ياماما..

وافقها كامل، رغب فى إرضائها لتنسى تأخره وانتظارها الطويل، ويعرف أكثر الأحساس الكبير الذى تشعر به وهى تسير إلى جواره، فرحة، مختالة، مزهوة، تعلن للناس حبها، تود من كل قلبها أن تعلن فوزها بحبيبها بعد الشقاء والتعاسة..

(٧)

كما توقع كامل، ماأن غادرا باب البيت ، أقبلت عليها النسوة والبنات محتضنات، مقبلات، مهنئات، يشكر كامل من تهنئه منهن، خطوة وراء خطوة، أمام بيت عزوز قام من مجلسه وأقبل فرحا سعيدا :

- ألف مبروك يا أستاذ، ألف مبروك ياست الكل..

صافحه كامل، ردت عليه سماح تهنئته، قال:

- أود الحديث معك ياست سماح فى موضوع خاص..

قالت سماح:

- تعالى بعد المغرب ياعم عزوز..

- أمرك ياست هانم..

قال كامل مهنئا:

- مبروك ياعم عزوز، البيت الجديد..

- تعيش وتسلم يا أستاذ..

بضع خطوات أخرى، وقفت سماح أمام بيت أمها قائلة:

- ما رأيك؟

- الدور الأول لأى مشروع تختاره، فكرت أن نقيم فيه مشغلا للبنات..

ثم دفعت البوابة الحديدية، دخلت وهو فى أثرها، دفعت باب الدور الأول الموارب وخطت داخله، وقفت وسط صالة كبيرة قائلة:

- فكر فى المشروع المناسب للمكان..

قال كامل بعد برهة:

- علمت أن مصنعك ينتج ملابس النساء..

هزت رأسها، ثم أردفت:

- جلاليب صيفية وشتوية، قمصان نوم، ملابس داخلية..

- ما رأيك فى ملابس الأطفال من التريكو..

شردت بعينيها بعيدا، تمشت عاقدة ذراعيها فوق صدرها، قالت:

- ليس عندى أى مانع، اذا كان فى إمكانك التوصل إلى الماكينات، و...

قال:

- الحمد لله، أحس بانفراجة في البلد، ويمكن الحصول عليها اذا كانت موجود ة أواستيرادها من الخارج.

- اعتبر المشروع مشروعك، وماعلىّ إلا التمويل..

- التمويل مناصفة بينى وبينك،، لكن..

ورسم بيديه فى الهواء صورة لافتة وقال:

- مصنع سماح لملابس الأطفال.. جميل.. اسم جميل..

يتلهى كامل عنها بالتجول داخل المكان، يضغط عواطفه، برقت خاطرة فى رأسه، يحاول الفرار منها، تمنى أن يحتضنها، يقبلها فى شفتيها، يفر من عينيها اللامعتين، ومن شفتيها الثائرتين، خرج إلى بير السلم قائلا:

- هيا.. هيا نصعد إلى أمك..

صعد الدرجات وهى فى إثره، تلقته الأم مرحبة. فتحت دلفتى الباب، دخل كامل وصافحها، دخلت سماح وقبلت أمها فى حب وبنوة، جلسا فى حجرة الأنتريه المطلة على مسجد سيدى عباس يشاهد سطحه ومئذنته القصيرة، قالت سماح:

- الأكل ياأمى..

قالت أمها:

- حالا ياسماح..

انهمكت الأم فى إعداد الطعام ووضعه فوق منضدة فى الصالة حولها عدد قليل من الكراسى توقفت وكامل يقول لها:

- أفضل الطبلية ياحماتى..

قام ونقل ترابيزة الأنتريه الصغيرة إلى أحد الأركان، وافترش الأرض جالسا، هرولت سماح وأحضرت طبلية صغيرة، تنقل أوعية الطعام من الصالة وترصها، ثم جلست إلى جواره، تلكأت أم سماح فى المطبخ، نادى كامل:

- هيا ياحماتى..

- بالهناء والشفاء..

- تعالى، شاركينا الا.....

أقبلت أم سماح، جلست، تقول فى حياء:

- لم تنبهنى سماح لحضورك.. الجود من الموجود..

قطع كامل لقمة، غرف بها من طبق البصارة، دسها فى فمه، بعد برهة قال:

- الله ياحماتى، تسلم لى يديك..

- مجاملة طيبة منك..

- لا والله، أنا لاأجامل.. حقيقى أنا نفسى فى البصارة من سنين.. كان نفسى فى الفول والطعمية وأكلت منها فى الصباح، والآن تحققين لى مافى نفسى..

تشاركه سماح الرغيف الذى يأكل منه، تقطع لقمتها لقمتين تعطيه واحدة وتأكل الأخرى، قال كامل ضاحكا:

- كان جدى حافظ الله يرحمه..

قالت أم سماح:

- الله يرحمه، طلب لنفسه الرحمة..

استطرد كامل:

- كان يقول عندما نلتف حول الطبلية «كل يوم بصارة، جاتها الغارة، هو بتاع اللحمة ماجاش نضحك كلنا، والحقيقة أنه لايوجد أى طبق بصارة على الطبلية..

تبادلوا الضحكات، قالت أم سماح:

- كل جرجير، أطعم مافى الخضر.. وبالذات مع البصارة والبطاطس المحمرة والفول و...

قال كامل مداعبا، وهو ينظر إلى سماح ويغمز لها بعينيه:

- سمعت مقولة تقول «لو عرفت المرأة ما فى الجرجير لزرعته تحت السرير»..

قالت سماح وهى تضع يدها على فمها من شدة الضحك:

- خسارة، لاأعرف زراعته..

- أنت الخاسرة..

نظر كامل إلى أم سماح، رآها تأكل فى بطء، تبدو شاردة:

- مالك ياحماتى..

انتبهت وقالت:

- فى نفسى شئ أود قوله لك، سماح بنتى والحمد لله بنت أصول، استشهد أبوها فى حرب ٤٨، رفضت أن أعيش مع أعمامها، أو أتعلق برقبة واحد منهم، وقلت حياتى كلها لسماح وتربيتها، سنوات طويلة لاأعرف عددها، قاطعونى، واعتبرونى خارجة عن طوعهم، يعنى لاتظنها مقطوعة من شجرة، ضعها فى عينيك..

- من غير أى كلام، سماح هى أنا ياحماتى..

- صحيح عشنا على قدر حالنا، اشترى الخضر وأبيعها، لكن الحمد لله سيرتى صاغ سليم.. واسأل خالاتك عنى، كنا معا ونحن بنات، نذهب للترعة ونملأ الجرار معا، نلعب فى القمراية معا، وكبرنا معا..

دمعت عيناها، مسحت دموعها بطرف طرحتها السوداء وقالت:

- عشنا أخوات حتى تزوجت خالاتك واحدة وراء واحدة، انشغلت كل واحدة بهمّ عيالها، ولانلتقى إلا صدفة..

قال كامل مبتسما:

- إن شاء الله تروق لك صحبتهن غدا، تذهب أمى لدعوتهن بعد المغرب..

رفعت عينيها مخترقة الشرفة إلى السماء داعية:

ـ ربنا يتم سعادتى وسعادتكم، ويرزقكم الذرية الصالحة، وأفرح بأولادكما على حياة عينى..

انتهى كامل من تناول طعامه، قامت سماح تسبقه إلى الحمام، أمسكت المنشفة بيد وبالأخرى قدمت له "الصابونة" غسل يديه وفمه، تناول المنشفة وقال:

– أكلة كانت حلم..

– بالهناء والشفاء ياحبى..

مال برأسه وقبلها فى جبينها، أمالت رأسها إلى الوراء مغمضة عينيها، مس شفتيها مسا خفيفا، وحين أبعدت وجهها قال:

– يلزم بعد الأكل شئ حلو..

عاد إلى حجرة الأنتريه، دخل الشرفة، تطلع إلى المسجد، تطلع إلى المقهى، انهمكت سماح فى نقل الصحون وما حوت الطبلية مع أمها، عادت سريعا، وقفت إلى جواره، قال:

– الله يرحمه عم شفيق، لم يقترب أحد ناحية الشجرة، الله يرحمها ويرحمه.. كان يحمى عصافيرها من أى شقاوة عيال..

– ياما كنت أسرح مع غناء العصافير..

وهى تميل برأسها تدارى بسمتها:

ـ وعينى على بابك فى انتظار خروجك واقول لك مع السلامة ياحبيبى..

وضعت أم سماح صينية الشاى على كرسى بجوار الباب، حاولت حمل الترابيزة الصغيرة لم تستطع لثقل لوح الرخام فوقها، نادت سماح لتساعدها، دخل كامل:

- عنك ياحماتى..

رفع لوح الرخام أولا، ثم نقل الترابيزة وأعاد لوح الرخام إليها، تناولت سماح الصينية ووضعتها فوق الترابيزة أمام كامل وجلست إلى جواره.. تناولا الشاى فى صمت وشجون..

استأذن كامل للانصراف، حاولت سماح إثناءه، قال:

- عندى مشوار مهم مع أبى، نتفق مع المأذون على الموعد، ونذهب إلى زوجة كارم لإعادتها لبيتها..

قالت أم سماح:

- غضبانة اياك..

قال كامل:

- عقل ستات..

قرصته سماح فى ذراعه قائلة:

- ما له عقل الستات؟

- ليست كل الستات مثلك ياسماح.. ستات لاتفكر، ستات لاتحسن التصرف، ستات... أشكال وألوان، وأيضا الرجال، رجال لاتفكر، رجال لاتحسن التصرف، رجال.. قالت أم سماح:

- ربنا يهدى نفسها.. وتعود لبيتها..

- ربنا يسهل..

ودعهما، خرجت سماح، وقفت على بسطة السلم تتنهد بصوت مسموع، تطلع إليها وهو يهبط الدرج:

- مالك؟

- روحى نازله معاك تحرسك.. خلى بالك منها..

- من عينى.. باى باى..

(٨)

عند الظهر بدأ الكهربائى يعلق حبال الكهرباء، حبال متقاطعة من بيت للبيت المواجه له عبر الشارع، وعلى امتداد الشارع كله، جاءت عربة الفراشة «الكارو» تحمل عشرات الدست من الكراسى، أمام بيت عزوز نصب مسرح صغير، وقف كامل فى الشرفة مشدوها، ظن ان سماح اتفقت ولم تخبره، قال لأمه:

ـ اذهبى للمجنونة سماح واسأليها ماذا تفعل؟

قالت أمه:

ـ سماح مظلومة، هذا فرح بنت عبد المعطى رئيس المخبرين بالقسم..

ازدرد كامل لعابه، وان لم تغادره الدهشة والعجب، «أهو غنى

إلى هذا الحد؟ وهل يشغل المعازيم كل هذه الكراسى؟، ولماذا كل هذا التبذير؟، يمصمص كامل شفتيه، فى إمكانه وسماح إقامة حفل عرس أكثر فخامة من هذا، لكنه.. لكنه.. لكنه ماذا؟

منذ جاء أول أمس طالع مسحة الحزن على وجوه من قابلهم من البشر، مازالت الإذاعة والتليفزيون يبثان القرآن الكريم، والأحاديث الدينية، مازال الناس يتحدثون عن الجنازة الهائلة لأكثر من مليونى مواطن كما كتبت الصحف، ويذكر من شاهدوها على الهواء فى التليفزيون، هل مازال البعض سريعا ينفضون الحزن؟ يقولون «مات الملك، عاش الملك»، هل هذا معقول؟

قال أبوه:

ـ هذا فأل حسن، طلبت أن يكون حفل فرحكم فى أضيق الحدود، يقتصر على الأقارب فقط..

يسأل كامل:

ـ وهل عبد المعطى هذا يملك تكاليف هذا الحفل؟

يرد عليه ممصمصًا شفتيه:

ـ لم يدفع قرشا واحدا..

ـ كيف؟

ـ مجاملات ياابنى، الكهربائى يجامله، صاحب الفراشة يجامله، أفضاله كثيرة على كل التجار وأصحاب المحلات وحتى بائعى المخدرات.. ربنا يكفينا شر خدماته..

ـ لم ياأبى؟ معنى ماأراه أنه يخدم الناس دون مقابل..

ـ هذا صحيح ياابنى، أقصد بدعائى أن لانضطر لدخول القسم يوما ما..

ـ فعلا ياأبى، ربنا يكفينا شر دخول أى قسم..

ـ ماذا أنت فاعل الآن؟

ـ لاشئ، نعلق حبال النور على واجهة بيت سماح، وكفى..

ـ هذا رأيى أيضا.. ويذهب المعازيم إلى هناك، بعد عقد القرآن تأخذ عروسك وتتوكل على الله..

داخل كامل الشك لحظات، هل تغير سماح رأيها، رفضت شراء فستان أبيض مزركش بالدانتيلا ككل البنات، رفضت الذهاب إلى الكوافير، طلبت منه فقط أن يكلف كارم بإعداد علب «الملبّس» فى صورة أنيقة تهدى للمعازيم..

عندما ضغط عليها، وهددها بأن يذهب ويشترى فستانا بنفسه دون صحبتها له، قالت:

ـ لن ألبسه.. عندى فساتين كثيرة لائقة، كلفت زينب بإحضارها مع عم عبده، تخير منها مايعجبك.. لاأرى فائدة لفستان أقضى به ليلة واحدة؟..

ـ ذكرى فرحة العمر..

ـ فرحتى الحقيقة أنت، لاأريد التزويق أو الدندشة، أريد أن يرى الناس فرحتى على طبيعتها..

لمح كامل صديقه قادما عبر الشارع، رفع أمير يده محييا، أشار إليه كامل بالصعود، خرج فى استقباله، عاد وسحب كرسيين إلى الشرفة، جلسا وكامل يرحب به:

- أهلا ياأمير، لاتظن هذا فرحنا، لست من إخوان الشياطين..

- ظننته فرحك والله..

- فرح جار لنا، زواج ابنته..

- يبدو أنه من المبسوطين جدا..

ضحك كامل وقال:

- تخيل، كل ماتراه مجاملات..

فتح أمير فمه على سعته، قال متحيرا:

- مجاملات، بهذه الصورة، يبدو أنه من الواصلين..

- فعلا.. وظيفته حساسة..

- فى المخابرات..

- تحت مأمور القسم بقليل..

- ضابط يعنى..

- رئيس المباحث..

هز أمير رأسه وقال:

- آه.. يعنى شهبندر التجار..

قال كامل:

ـ حسب علمى، لانظلم الرجل، فهو يخدم لوجه الله..

ـ والله الذى أعرفه أن من يخدم لوجه الله لايقبل مجاملات من هذا النوع، أو بهذا الشكل، هو يخدم ويسترد خدماته فى يوم مثل هذا.. لم يعد فى حياتنا من يخدم لوجه الله..

ـ أنت متشائم جدا ياأمير..

ـ من أين يأتى التفاؤل؟. نحن فى بداية عهد جديد، لاندرى أى اتجاه تسلكه السفينة.. لسنا فى حرب، ولسنا فى سلام، كلفتنا الهزيمة مائة ألف شهيد، يعنى مائة ألف بيت أصابته كارثة، واليوم، كما سمعت يجند كل شهر عشرات الآلاف، يعنى من الجامعة إلى الجيش..

قال كامل مندهشا:

ـ أمير.. ماذا بك؟ ماعهدتك تتكلم فى السياسة..

ـ الدور أصابنى.. طلبت للتجنيد.. يعنى سأصبح على ذمة الاستشهاد..

ـ لاتقدر البلاء قبل وقوعه..

شرد كامل بعد قولته، يعرف عن أمير خصلة يعتبرها من أسوأ الخصال فى الرجل، لاحظه أثناء الحرب، يقفز الدرجات، يقف على عتبة البيت مرتعبا خائفا، ترى العين ارتعاشة جسده وانفلات أعصابه، ويظهر خوفه فى ارتعاش صوته أثناء الحديث..

قال مواسيا:

- تشجع ياأمير، الرب واحد والعمر واحد..

قال أمير:

- مخطئ لو تصورت إنى أخاف الموت.. ماأخافه فعلا ضياع المستقبل.. أنت لاتعرف ماأراه من معاناة الناس، عملى فى التأمينات جعلنى أشعر بالأسى والحزن، مئات الأرامل اتعامل معهن كل يوم، نساء صغيرات حكم عليهن بالترمل، فقدن طعم الحياة، مآسى بالجملة..

بعد تردد قال:

- آنا آسف.. اليوم فرحتك.. أرانى قلبت عليك المواجع..

قال كامل:

- المواجع حية فى داخلى، وبسببها نقيم فرحنا فى أضيق الحدود.. لا عن عجز ولكن لشعورى بالوجيعة..

- انظر لهؤلاء المجاملين، أرى فيهم عنوانا كبيرا يبدأ به الناس العهد الجديد..

ثم وقف وانحنى مدققا النظر وسأل:

- أترى مافى البراميل؟

نظر كامل ودقق النظر وقال:

-مئات الجوز لزوم المعسل...

ثم بعد أن جلس متنهدا:

- ولزوم الصنف..

- تحت عين ورعاية ال...، الحصانة..

- بالتأكد، ولا تستبعد أن يكون كل القسم معزوما فى هذا الحفل..

- لنا الله..

قالها أمير بأسى وحرقة، ثم قال مغيرا الحديث:

- متى يحضر صلاح؟

- لم يحدد لى موعدا، اتصلت به تليفونيا وأخبرته بموعد حضور المأذون، أكدت عليه الحضور قبل الموعد..

أطل كامل على أثر سماع النداء عليه، قال:

- نعم ياعم عزوز..

- لو سمحت خمس دقائق..

استأذن كامل من أمير:

- لا تغادر مكانك، سأرجع حالا..

ذهب كامل إلى سماح، عرضت عليه الفساتين التى أحضرتها زينب معها، قالت:

- اختر منها ما يعجبك..

قلبها بين يديه، تطلع إلى عينيها وقال:

- ذوقك لا يعلى عليه، كلها أجمل من بعضها .. اختارى أنت..

- لا تحيرنى معك.. اختر ماتراه مناسبا..

- صعب الاختيار ياسماح..

ثم قال ضاحكا:

- ألبسيها كلها..

ثم قدم لها واحدا بدا أنيقا لأول وهلة، لفت نظره بمجرد رؤيتها مجتمعة، هتفت:

- كانت عينى عليه، الحمد لله..

- ارجع لضيوفى..

عاد كامل إلى البيت، وجد بعض خالاته تجلسن فوق الكنب، صافحهن، طبعن على خده قبلات التهنئة بسلامة العودة، وبالزواج، تمنين له السعادة.. بدأت الحركة تدب فى البيت، الأولاد يلعبون، يصرخون ويهللون، قال كامل لأمير:

- تعال نصعد إلى السطح،..

صعدا إلى السطح، قال كامل:

- حصلت على دستين من الكراسى بطلوع الروح.. كل الكراسى محجوزة للحكومة.. الحمد لله لم نفكر فى إقامة حفل كبير كما يفعل الناس..

بدأ بعض الرجال يتوافدون، يصحبهم أبو كامل إلى السطح، يتعارفون، يجلسون، تتناثر أحاديثهم حول الشارع ومايحدث به، بعضهم يستهجن، أحدهم يقول:

ـ لعل الناس تخرج من حزنها.

متبرم آخر يقول فى مرارة:

ـ لافائدة، طول ماالأمور شيلنى وأشيلك..

يعلق زوج خالة كامل الكبرى مشيحا فى غضب:

ـ بسبب المجاملات والخواطر البلد راحت فى داهية.. بداية أى فساد هى المجاملات..

قال أمير:

ـ حضرتك تحرق دمك ولافائدة.. هدئ أعصابك..

ـ كيف يتأتى الهدوء، أنت لو تقف أمام الجمعية فى الطابور أربع خمس ساعات يكون لك حظ لو حصلت على زوج فراخ، غيرك من عينة صاحبنا، أمام أعيننا، تطلع له كرتونة الفراخ ولايبالى بنظرات الناس.. قف فى أى طابور وشاهد بنفسك..

ـ والله أعرف.. أعيش نفس معاناتك.. لكن ماباليد حيلة..

عاد كامل بعد أن استعد وارتدى حلته، واتخذ رونق العريس وأناقته، قال ضاحكا:

ـ ياجماعة الليلة فرحى، انسوا السياسة..

قال زوج خالته:

ـ أينسى أحد الأكل والشرب؟ السكر والشاى والزيت والجاز، من لايحتاج ستر جسده؟. كل شئ فيه سياسة.. لو السياسة سليمة تصبح الحياة مريحة.. رأيى أقوله والأمر لله..

رد أمير قائلا:

ـ السياسة هى الخطأ والخطيئة فى أيامنا..

قال كامل:

ـ تفضلوا.. نذهب إلى بيت العروس، المأذون على وصول.. ميعاده أزف..

تقدم كامل ضيوفه، يمشى أمير إلى جواره خطوة خطوة، يتبعه عدد من الأقارب والمعارف، لمح عزوز خارجا من بيت سماح فناداه:

ـ ياعم عزوز.. ياعم عزوز..

أقبل عزوز سريعا:

ـ نعم ياأستاذ..

ـ رجاء جمع عدد من الصبية يحضر وا الكراسى من فوق السطح..

ـ حاضر ياأستاذ..

قال أمير:

ـ كان بإمكاننا حملها، كل فرد كرسيين..

ـ الجميع ضيوفنا ياأمير..

قال أمير:

ـ على كل خذ أنت الضيوف، وأنا مع عم عزوز نشرف على نقل الكراسى..

وقف كامل يتلقى الكراسى من الصبية وعم عزوز وأمير، يرصانها فى الدور الأرضى المزمع إنشاء المصنع به، دعا الضيوف للجلوس، طلب من عزوز الذهاب إلى المقهى وإحضار ثلاثة صناديق كاملة الزجاجات ـ بيبسى كولا وكوكاكولا ـ قال عزوز:

ـ الهانم جهزت كل شئ..

سمع كامل صوت سماح تناديه من أمام باب شقة أمها، صعد إليها، قالت:

ـ تعالى أريك شيئا..

دخل وراءها وهى ممسكة بيده، لقى زينب فقال لها:

ـ عقبالك يازينب..

ـ ربنا يتمم بخير ياأستاذ..

دخل وراء سماح إلى المطبخ، أشارت إلى عدد كبير من صناديق البيبسى والكوكاكولا، قالت:

ـ تنزل لك زينب بما تريده..

قال كامل:

- يكفى صندوقان الآن..

- الشربات بعد كتب الكتاب..

قال كامل معترضا:

- يكفى الزجاجات ياسماح..

قالت وهى تهمس فى أذنه:

- المفروض أن كتب الكتاب فى بيت العروس، وعلى أهلها واجب الضيافة، أنسيت الأصول ياحبيبى؟

- كنت أظن أن زجاجة لكل فرد وعلبة الملبس وكان الله بالسر عليم..

- على فكرة عم عبده ذهب ليحضر مائة علبة، أمى لاتستطيع أن تطبخ وتعد السفرة لعدد كبير، وفرت عليها العناء..

وضع كامل إصبعين فوق شفتيه، عقب قائلا:

- افعلى ماتشائين، لن أفتح فمى بكلمة..

تساءل قبل أن يتركها:

- قد نحتاج لكراسى؟ افكر بنقل كراسى الأنتريه لأسفل..

قالت وهى تدفع به إلى خارج الشقة:

- أريد أن ألبس ملابسى، لاتشغل بالك، يتصرف عم عزوز..

- يتصرف، كل كراسى محل الفراشة استولى عليها عبد المعطى..

ـ دعنى أتصرف.. إنزل لضيوفك..

يجلس المعازيم جماعات متناثرة، أقبل صلاح بصحبة كارم، احتضن كاملا وقبله مهنئا قال بعدما حيّا الضيوف وتعانق وأمير:

ـ اسمع ياولد، سهرتك وعروسك على حسابى الليلة..

قال كامل مستهزئا:

ـ فى الكباريه.. يفتح الله..

قال صلاح لأمير:

ـ بالذمة هذا ولد عبيط، ليلة فى العمر.. على الأقل تعرف العروسة أن لك ناس فوق.. عقب أمير ضاحكا:

ـ طبعا.. ناس فوق مستوى الناس.. ألا يكفى المهرجان.. ألم تره فى الشارع؟

قال صلاح:

ـ تصور أنى خدعت، ظننته حفل كامل..

قال أمير ساخرا:

ـ تقدر تعتبره فرح حكومى.. فرح سلطوى يعنى..

قال صلاح متسائلا:

ـ ابن من فى البلد؟

ـ بنت رئيس المخبرين..

هتف صلاح:

- إذا عرف السبب بطل العجب.. أنا اتخضيت أما شفت براميل الجوزة، وصناديق البيرة.. قلت فى نفسى، ألا يخاف الحكومة..

ثم أطلق ضحكة عالية وقال:

- ان شاء الله أهل الشارع يسكروا على ريحة الهبو..

دخل عزوز، وخلفه الصبية وعبد الله بن الحاج شفيق يحملون ترابيزات وكراسى المقهى، يرصونها حول كل ترابيزة ستة كراسى.. واتخذ المكان شكلا منتظما، سأل كامل عبد الله:

- وزبائنك ياعبد الله؟

- أنا قلت لهم عندى فرح، لازم أشطب بدرى.. ربما يتمم بخير ياأستاذ..

تبدد كل ماتخيله كامل، رسم خطته أن يتم عقد القرآن ويأخذ حبيبته، يطير بهما عم عبده إلى البيت لينفرد بها وتنفرد به، لم يتوقع أن يبقى وتمد موائد العشاء، وتوزع أكواب الشربات، أصبح تحت رحمة المعازيم، ولايستطيع الإفلات..

ارتدت سماح فستانا سماوى اللون، موشى صدره بحبات الترتر، وحواف أكمامه موشاة بالخرز الملون، أحاطت جيدها بعقد أبيض، يتدلى قرطان من أذنيها على شكل وردة صغيرة، ساعدتها زينب وبعض العاملات بالمصنع فى تمشيط شعرها ينسدل بعض خصلاته حتى كتفيها، وترتفع خصلات أخرى أعلى جبهتها على

شكل موج البحر، وضعت قليلا من أحمر الشفاه فوق شفتيها، وقليل من الكحل فى عينيها.. بدت متألقة فى بساطة، فاتنة فى يسر، تروح وتجئ، تساعد وتعمل وكأنها ليست العروس.

يزداد عدد المدعوين، دخل عم حفنى يدب بعصاه، وقف فى بئر السلم، هنأ كامل وأبى الدخول إلا بعد رؤية العروس.. اضطر كامل للنداء على سماح، طلب منها النزول، قال:

- سلمى على عمى العجوز..

مدت سماح يدها، قبض عليها عم حفنى وقال:

- قبل ماأهنيك، الولد كامل لقطة، هدية من السماء، حافظى عليه، ضعيه بين رموش عينيك واتكحلى عليه.. ألف مبروك ياابنتى، وربنا يسعدكم..

ثم قال لكامل:

- قلبى اطمأن عليك واستراح..

دخل عم حفنى، القى السلام على الضيوف، اتخذ مجلسه، تطلع فى وجوه الحاضرين، أشار إلى أمير، دنا منه قائلا:

- عقبال صابر فى حياتك ياعم حفنى..

- أين الرجل ياولد؟

- أى رجل ياعم حفنى؟

- أبو الولد كامل..

ففر أمين فاه دهشة:

- ألا تعرفه ياعم حفنى؟

- ولايعرفنى..

جالت عينا أمير فى الموجودين، اتجه إلى والد كامل، سحبه من يده قائلا:

- عم حفنى يريد التعرف عليك..

قدمهما أمير لبعضهما، تصافحا، قال عم حفنى:

- من زمان نفسى أتعرف عليك..

- نفس المشاعر والله، ياألف مرحبا، ربنا يطمئن قلبك على صابر وتفرح به..

- كنت أظنك عجوزا مثلى..

ضحك أبو كامل وقال:

- لايغرك شكلى، لم يبق فى العمر قدر مافات..

أثار مقدمه ضجة، يدخل الصبية فى صراخ، زعيق، يتناوبون الإمساك بأى جزء من كامل، كل يردد:

- المأذون وصل.. المأذون وصل..

نهض أبو كامل واستقبله:

- تفضل ياسيدنا.. تفضل،

عند منضدة تركت خالية لأجله أجلسه، يتبادل المأذون التحية مع المعازيم مناديا على كل منهم بالاسم، ثم قال:

- أين العريس؟

لمحة بالقرب منه:

- بطاقتك.. وأين الشهود؟

تقدم صلاح متطوعا:

- أنا واحد منهما..

وقدم بطاقته، تقدم أحد الضيوف وقال:

- يشرفنى أن أكون شاهدا..

قدم بطاقته هو الآخر..

تقدم صلاح الشاهد الثانى، صعدا الدرج وقف كارم فى استقبالهما:

- تفضل يأستاذ صلاح..

قالها كارم مرحبا، قادهما إلى حجرة العروس، طلب من النسوة والبنات الهدوء قال صلاح:

- عقبال عندكم جميعا، مارأيك ياعروستنا؟ موافقة؟

هزت رأسها، قال صلاح ضاحكا:

- اسمع صوتك.. موافقة؟

ـ موافقة..

ـ على بركة الله..

بضع خطوات، وانطلقت الزغاريد، والطبل، والغناء..

نزلت أم سماح وراءهما، وقفت قرب الباب، قال المأذون:

ـ من وكيل العروسة؟

– معى بطاقتها يا أستاذ..

ناولتها له، قال المأذون:

– عقبال حجك ياأم سماح..

– جمعا إن شاء الله..

تقدم عم عزوز، مد يده بمنديل أبيض لم تلمسه يد، قال:

– أنا فى مكان والدها، إذا لم يكن عند الأستاذ مانع..

قال كامل:

– أبدا ياعم عزوز، أنت الخير والبركة..

– الست سماح فى معزّة زينب بنتى..

جلس عزوز، وضع كامل يده فى يده، تلى المأذون ما يحفظه عن ظهر قلب، خطف المنديل دسه فى جيبه:

– بالرفاء والبنين إن شاء الله..

دوت الزغاريد معلنة عقد القران، بدأت صوانى الشربات تدخل

مليئة أكوابها، مـزهزهة بلونه الأحمـر، تخرج بيضـاء، وبدأ توزيع العلب، انصرف المأذون سريعا، متعللا:

– الليلة الخميس، الأفراح كثيرة..

خـرج كامل وراءه، أعطاه ما اتفق عليه، ثم عـاد يتلقى التهـانى والقبلات..

(٩)

صعد كامل إلى سماح، تلقته أمه وحماته بالقبلات، صافح كل الأيدى الممدودة بالتهنئة، أمسك سماح من ذراعيها وقبل جبهتها، ثم قبل جيدها، قال بعد أن انزلقت يداه إلى يديها:

- هيا بنا..

قالت أمه:

- الوقت بدرى.. اصبر..

- بدرى من عمرك ياست الكل..

ارتفع صياح، هرج ومرج فى الشارع، يلتف الصبية حول سيارتى أجرة، تقل الفرقة الموسيقية وراقصتين، قالت سماح:

- ساعة واحدة ونمشى..

- عموما أنا فى انتظارك مع ضيوفى..

نزل، يتلقى المداعبات من صلاح، أمير، عم حفنى، كارم، عم

عزوز، يتنقل بين الترابيزات سعيدا، فرحا، قال صلاح بعدما غادر كرسيه:

– ما قولك ياكامل؟ لا تضيع سهرة العمر..

اقترب أمير وكامل يقول لصلاح:

– لو كانت مها معك كنت أوافق.. أتوافقنى ياأمير؟

ـ أوافقك، إن شاء الله تعود لبيتها..

أمسك صلاح بيد أمير وقال:

ـ تعالى معى.. أنت الجانى على نفسك..

ـ أنا ممكن، عازب مثلك تماما..

صافحا كامل، تمنيا له كل السعادة، انصرفا..

بدأت ترتفع إلى السماء أصوات الآلات الموسيقية، بدأ المعازيم ينصرفون فرادى وجماعات، بقى والد كامل وعم عزوز، اقترب من كامل وقال:

ـ تأمرنى بأية خدمة..

ـ ألف شكر ياعم عزوز، إن شاء الله تفرح بزينب..

ـ ربك كريم ياأستاذ، ألف مبروك، بلغ الهانم أجمل تمنيات عم عزوز..

انصرف عزوز، أطفأ كامل أنوار الدور الأرضى صعدوا للدور الثانى، جلس والده وأخوه على الأنتريه، زينب وسماح تقفان بالشرفة، اخترق كامل الحجرة، سمع زينب ترد على صوت أبيها:

ـ حاضر، نازلة حالا..

ثم قالت لسماح:

ـ تحتاجين أى شئ؟

ـ إياك تتأخرى يوم السبت..

ـ بإذن الله..

وانصرفت زينب، قالت سماح لكامل:

ـ تعالى نصعد السطح، نتفرج أحسن..

وهما عند الباب، هتفت أم سماح:

ـ العشاء ياولاد..

ـ تعشوا أنتم..

ينظران، يندهشان، الراقصة تتلوى على صوت الموسيقى، الترابيزات تتناثر فوقهما زجاجات البيرة، وأطباق المزّة خيار، ترمس، بطاطس محمرة حول كل ترابيزة جمع من الناس، يتجرعون البيرة من الزجاجات، يصفقون للراقصة، على امتداد البصر لاتصل عيناه إلى نهاية، رجل فى جلباب بلدى يصعد خشبة المسرح، تتوقف الراقصة، يمسك بالميكروفون يقف إلى جواره أحد أفراد الفرقة..

ـ الفرح.. الليلة..

ـ الفرح.. الليلة..

- العريس وأهل العريس، العروسة وأهل العروسة..

- العريس وأهل العريس، العروسة وأهل العروسة..

- المعلم...، والمعلم.....، والمعلم.... عقبال أولادهم..

ويتكرر كل مايقوله صاحب النقطة، وهو يلوح فى الهواء بعدد من الأوراق المالية الورقية مختلفة الفئات وفى الختام يقول المهنئ:

- وأنا وأنت..

- وأنا وأنت..

ويغادر المسرح، يقف صبى ويتناول الأموال، يدسها فيما بدا وكأنه كيس مخدة، ضحك كامل وهو يقول لسماح:

- رزق الهبل على المجانين، الليلة فى أولها، بعد السكر يتبارز السكارى بالمئات..

- يبدو أن ابن عبد المعطى يجمع النقطة..

يرقب سحابات الدخان الأزرق تتصاعد إلى الهواء، تعود الراقصة للرقص، تقاطع مرة أخرى ويبدأ موال النقطة من جديد..

احتضنت كفه يد سماح، تحسسها وقال:

- بيتنا أولى بنا، هيا ياحبيبتى..

- نفسى أتفرج على الراقصة يا كامل..

- لا يمكنوها من الرقص ربع ساعة بدون مقاطعة.. كل المدعوين أغبياء يتفاخرون بالوقوف بجوارها ويدفعون دم قلوبهم..

قفز الى المسرح رجل فى حلة رمادية، أمسك بالميكروفون..

قالت سماح:

ـ عبد المعطى صاحب الفرح.. أتعرفه؟-

أول مرة أراه..

ارتفع صوت عبد المعطى مرحبا:

- سلام ل.... بيه، وسلام ل...بيه، وسلام.....بيه..

وبين كل سلام والآخر تعزف الفرقة قطعة موسيقية.. ثم ترك الميكروفون ونزل مرحبا، قاد من أهداهم السلام إلى خلفية المسرح، وعلى الفور أعدت ثلاث ترابيزات، حول كل منها عدد من الكراسى، دعا عبد المعطى ضيوفه، لاصقا بكل اسم كلمة يابيه، قال كامل:

- اعتقد أنهم هيئة القسم بكاملها..

تأكد من اعتقاده وصوت جهورى يصم أذنيه:

- سلام كبير للحكومة، أجمل سلام للحكومة..

امتلأت الترابيزات بزجاجات البيرة، والمزة بطاطس محمرة، شرائح الكبد، قطع الجبن الرومى، وجاءت الجوز يداعب الهواء قطع الفحم المتوهجة فوق حجارتها، تصاعد الدخان الأزرق، يكاد يشمه كامل من أعلى، قالت سماح:

ـ تعال ننزل، لأطيق رائحة الهباب الحشيش..

نزلا، جلسا متجاورين، قالت أم سماح:

- العشاء جاهز ياسماح..

نادت صبية صغيرة وقالت لها:

- نادى ياشاطرة عم عبده السواق من العربية..

هرولت الصبية، قاما، يتبادلان التحايا، القبلات، التهانى، خرج أبو كامل وكارم فى وداعهما حتى السيارة..

لحق بهما عم عبده، وضع العشاء فى شنطة السيارة، قال أبو كامل:

- ربنا يسعدكم ياولادى..

قال كامل لأخيه كارم:

- فى انتظاركم ان شاء الله..

- بإذن الله..

ركبا السيارة، انطلق عم عبده تودعهما الأيدى الملوِّحة..٠

(١٠)

أسرع عم عبده بنقل سلة العشاء من شنطة السيارة، قال وهو يودعهما:

ـ أية خدمات..؟

قالت سماح:

ـ أشكرك كثيرا ياعم عبده، أنا تعبتك، أراك يوم السبت على خير..

ـ تعبك راحة ياست هانم.. وألف مبروك..

ركب السيارة وانصرف، دخل كامل وهو يقول:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم..

ثم مد يده لتمسك بها، وهى تردد ماقاله، أغلقا الباب، وقفا كلٌ

فى جانب، ينظران إلى بعضهما، يبتسمان، يضحكان، يقتربان، يتواجهان، ترتعش الشفتان، القلبان يرتجفان، يتهامسان:

- حلم..

- حقيقة..

- حقيقة..

- حلم..

يطوقها بذراعيه، فى قبلة طويلة يغيبان، تميد الأرض، يتماسكان، يحملها بين ذراعيه، ترتاح رأسها على كتفه، عيناها تدمعان..

- انزلنى ياكامل..

ينزلها برفق، يحيط خصرها بذراعه، نحو حجرة النوم يخطوان.. باب الحجرة يغلقان..

- سماح..

- كامل..

- حبيبى..

- حبيبتى..

يضحكان، يبكيان، يتلامسان، يتعانقان، يتجردان، يتهامسان، يتلاصقان، يتهاويان، ينتفضان، يترفقان، يتخاذلان، يحدقان، يتمرغان، يتقلبان، يهتفان:

ـ يحيا الحب..

ـ صدقنى ياكامل لو قلت لك أن الليلة بداية عمرى..

ـ من غير كلام..

ـ أعنى غفرت لى مافات..

تبرز فى الضوء الخافت صورة، يهشها، ينفخها، تترائ له عزيزة، تترى أيامها فى تداعى بغيض، يهز رأسه ويقول:

ـ لنعتبر الماضى ثوبا خلعناه.. نحن أولاد اليوم والغد..

ـ طمأنتنى على حبى.. ما.. ماهذا؟

فى اضطراب:

ـ أضئ النور ياكامل..

وتطلعت إلى راحة يدها، قالت فى خوف:

ـ دم.. دمى ياكامل..

نظر كامل إلى يدها، نَّحاها جانبا، ملاءة السرير مبقعة بالدم، لفت جسدها بالملاءة،

ـ ناولنى قميصى..

فى شرود، توهان، مفاجأة، أحضر لها روبه لفها به، قامت، جذبت الملاءة، لاحظت بعض بقع الدم تسربت إلى قماش المرتبة..

جلس كامل على كرسى التسريحة، ينظر إليها فى دهشة، يهز رأسه غير مصدق، تبكى قال كامل:

- ربما كنت قاسيا عليك وجرحتك..

- لاأشعر بآلام جرح..

- فيم بكائك إذن؟؟

- افتضح سرى، افتضح ماعاهدت نفسى على كتمانه..

- أى سر ياسماح..

- سر حياتى مع عزت الله يرحمه..

- أفهم أنه لم يقترب منك أبدا.. وأنك.. أنك حتى هذه الليلة عذراء..

هزت رأسها موافقة على صحة كلامه، فى شئ من عدم التصديق قال:

- هل هذا معقول؟

- ألا تصدقنى.. والبرهان أمام عينيك..

القت بروبه إليه، جففت مابين ساقيها بالملاءة، قدمتها إليه مرددة:

- البرهان أمام عينيك.. صدق.. صدق ياكامل..

قال كامل وهو يضمها فى قوة إلى صدره:

- ياحبيبتى أنا لاأصدق قمة سعادتى، لاأصدق الحقيقة أمام عينى.. لاأصدق.. أننى تزوجت أرملة ولكن عذراء..

ثم وهو يبكى يدس وجهه بين كفيه:

ـ بودى أن أذهب بك غارقة فى دمك لأحرق دم بعض الناس..

جلست على حافة السرير وقالت:

ـ من تكلم عنى ياكامل؟ صارحنى..

ـ بعض أناس لاقيمة ولا وزن لهم..

ـ من لأعرف؟ لأفهم؟ لأحذر؟ قل لى بصراحة..

ـ زوجة أخى كارم وأسرتها.. لك شكرى يارب، حققت بزواجى منك ضربة قاضية عليهم، الآن منحتنى الرصاصة القاتلة..

صمت، ولم يقل أن خوف زوجة أخيه على زوجها منها كان سببا للمشاكل بينهما حمد لأخيه ثقته فى سماح، وسوء ظن زوجته، واتهامها الباطل، فتركها مغضبة عند أهلها ولم يذهب لترضيتها وإعادتها إلى البيت، لم يقل أن وقاحتها وصلت إلى وضعه بين أمرين إما هى وعودتها للبيت وإما عمله مع سماح..

تطلع إلى عينى سماح وهى تقول:

ـ أنا لايهمنى أم سمير ولاأهلها كلهم.. يهمنى أمى، جيرانى، الذين يعرفوننى كلهم.. قامت، لفت الملاءة المبقعة بالدم، وضعتها بحرص فى دولاب ملابسها، اتجهت إلى الحمام قائلة:

ـ آخذ حماما وأعود..

لملم روبه حول جسده، جلس فوق كرسى التسريحة فى مواجهة

مرآتها، يكاد يقترب من فهم سر سماح، ربما كان عزت مخنثا، أو مريضا بالعجز، أو ربما كان....، أو .... خرجت من الحمام، وقفت قبالة ظهره، أحاطت رقبته بذراعيها، داعبت صدره بأصابعها، قالت

- أعرف مايشغل تفكيرك.. تفكر فى عزت، زوجى الراحل..

تابعت شفتيه فى المرآة:

- طبعا، فيمن أفكر إذا لم أفكر فيه؟

- أتريد حقيقة ماحدث؟

- ثقى أنه لايهمنى فى قليل أو كثير، وثقى أن الحقيقة لاتقدم ولاتؤخر، أنا فى منتهى السعادة وهذا يكفينى، وأشكره - أيا كان من حقيقته - أن حافظ عليك كما أنت لأجلى، لأجل حبنا..

حررت رقبته من ذراعيها، دارت وجلست فوق ركبتيه، احتضنت رأسه فى صدرها، تبدو مترددة، تبحث عن الكلمات القليلة التى تفى بحاجتها إلى ماتود قوله، قبلت شعره قائلة:

- عندما تزوجنا عرفيا، كنت أخشاه، أخاف منه، كان جسده قويا، عضلاته تبدو بارزة فى ذراعيه، غابة من الشعر الأسود تغطى صدره، كنت فعلا أخاف منه، وانزوى فى جانب من السرير مقرفصة، مرتعشة.. يجلس إلى جوارى، يمسح شعرى، يتشمم أذنى، يقبل رقبتى، أشعر به يشاركنى ارتعاشى، إذا تكلم ظهر اضطرابه أكثر، يكف عن الكلام..

ـ كفى ياسماح.. كفى.. أنا سعيد بك، وأكثر سعادة بالواقع الجميل الذى أفاقنا من حلمنا..

ـ كان عزت يخشى الزواج أتعرف السبب؟ كان يعتز جدا بشخصيته، إذا مرض يرفض الذهاب لأى طبيب، طلب منى أن أحافظ على سره، وأن يحافظ هو على عذريتى، أتعرف ماهو السر؟ كان يفتقد القدرة على الاحتفاظ بقوة رغبته، مجرد شعوره بالإثارة، أى إثارة، حتى لو رآنى فى قميص النوم، أو رأى صدرى فى وضع طبيعى يهتز وأنا منهكمة فى أى عمل، ألمح لون الدم فى وجهه، ينتفض جسده، ويمضى إلى الحمام ليأخذ دشا ساخنا أو بارد.. كأى زوجةطلبت منه الذهاب للطبيب، رفض رفضا باتا، بينى وبينك وجدتها فرصتى، امتص رغبته بكشف أى جزء من جسدى، وأنا مطمئنة غاية الإطمئنان.. عرفت بمضى الوقت خوفه من الزواج، وخوفه من افتضاح أمره، أوتستغل أى زوجة ذلك ضده وتنال منه ما تطلب.. على هذا الوضع عشت معه زواجا عرفيا، وزواجا رسميا، وحمدت الله وتشجعت واعترفت لك قبل سفرك بحبى ولم أقص قصة غيابى، اسأل كارم، قلت له فى يوم لا أذكره أن بينى وبينك حبا، وحبنا يريد الله له أن يعيش.. اسأله، آه، ذلك كان يوم جاء يخبرنى بعودتك القريبة من السفر، ويومها لم أستطع إخفاء مشاعرى فأعلمته بالخبر «أخوك راجع ياكارم، أخوك راجع..» فوجىء، واستند إلى دلفة الباب، سألنى كيف عرفت؟

فاعترفت له بحبنا.. صدقنى ياحبيبى فى كل ما قلت لأنه الحقيقة..

- أصدقك ياحبيبتى، والله أصدقك.. مالت على وجهه وأغرقته بالقبل، قالت وهى تتفلت من يديه:

- أنا جائعة.. تعالى نأكل.. نأكل طعام أ م سماح..

قال وهو يفترش الأرض:

- هات السلة هنا..

أحضرت سلة العشاء، جلست إلى جواره، تقبله ويقبلها، تطمعه ويطعمها، تزغزغه ويزغزغها، تبعده ويبعدها، تدنيه ويدنيها، يلهوان كطفلين صغيرين سعيدين.. يستمتعان بلعبة عريس وعروسة..

(١١)

جلس المعلم عزوز فوق تل صغير من الرمل، تفر حبات المسبحة بين أصابع يده اليمنى، يتابع بعينيه حسن، محمود، ابراهيم يعملون فى همة ونشاط للإنتهاء من بناء جدران المسجد، ثلاثة عمال آخرون ينقلون الطوب ويضعونه فوق السقالات، يعمل البناؤون الثلاثة والعرق يتصبب على صدورهم لم يتوقف أحدهم لحظة لتجفيف العرق، كما لم يتوقف ضارب بـ «المسطرين» علامة نقص الطوب أوعدم وجود مونة..

يتابع حبات المسبحة بعينيه، يتطلع الى السماء يدعو:

- ربنا يسهل ولادتك ياسماح يابنتى.

جاءت سنية العرجاء تزك على قدمها اليسرى، يدها تقلب السكر بالملعقة فى كوب الشاى إلى جواره كوب ماء فوق صينية صغيرة من الألومنيوم، وضعت الملعقة فوق الصينية وقدمت الشاى:

- الشاى يا معلم عزوز..

- تشكرى ياسنية..

حفر حفرة صغيرة فى الرمل بكعب الكوب، ثم وضعه، ينظر بفخر إلى الحوائط تعلو وتعلو، ترمومتر النجاح يبشره بمستقبل باهر فى عالم المقاولات، لم تكتف سماح بإقراضه ليشترى الأخشاب وهى عدته ليكون مقاولا بل قدمت له أول عملية متبرعة لإتمام المسجد الذى تقاعس الحاج قاسم عن بنائه بعد سقوطه فى الانتخابات، يشعر بالفخر لإبنة الحى التى أقدمت على هذا العمل الذى يثقل كاهل الرجال، عدة سنوات والناس تدفع تبرعاتها لإتمام المسجد، والحصيلة لا تقيم إلا عدة جدران، دفعت بالمهندس شوقى، خريج كلية الهندسة لأول عمل له، طلبت منه أن يثبت جدارة فى تصميم صحن المسجد والميضة، وتخصيص جزء لصلاة النساء، والإهتمام بالديكورات والنقوش التى تتفق والإسلام، بذل شوقى جهدا مضاعفا، سهر الليالى، شرح لها جهده، وافقت عليه بعد بعض الملاحظات التى أبداها كامل وكانت هامة ليخرج البناء فى أحسن صورة..

أثارت سماح حمية الناس فى الحى، بدأت التبرعات تنهال على المسجد، تزداد الحصيلة أسبوعا بعد أسبوع، هناك من تعهد بفرش المسجد بالسجاجيد، ومن تبرع بتعليق المراوح اللازمة للتهوية، ومن تبرع بتوفير الأدوات الصحية للميضة، وبدأ الإهتمام بمتابعة البناء، والتطلع إلى يوم الوفاء بما تعهدوا به..

يعتبر مسجد الإخلاص هو الرابع فى الحى بعد المسجدين القديمين سيدى عباس والمسجد الكبير، ومسجد سيدى علوان الجديد الذى أقامه وأتم بناءه الحاج على الليثى، وهناك مشاريع مساجد أخرى، حددت أراضيها فى أرض الفتوة «وأبى عمة»..

يتوقع عزوز أن يطلب منه بعد حصوله على شهادة الجميع بكفاءته كمقاول أن يفوز ومعه المهندس شوقى ببناء المسجدين الآخرين مسجد اليقين فى أرض الفتوة، ومسجد التقوى فى أرض «أبى عمة»..

مرت زينب فى عجلة، قالت:

- سماح ولدت ولد..

- صحيح يازينب.. الله كريم.. الحمد لله..

وأسرعت لتنقل الخبر لأمها وأم سماح، وأم كامل..

* * *

فرحت أ م زينت، أطلقت زغاريدها تعلن الخبر للجيران، تطلعت نحو شرفة أم سماح وكأنها تري الملاءة في يدها متدلية من الشرفة يطوحها الهواء ويطوح معها الزغاريد التى تخرج مرهقة مكدودة من فم أم سماح، تشاركها زغاريد أم زينب الطويلة الممدودة، تجاوبت معها زغاريد أخرى من شرفات أو نوافذ، اعتبر من سمع الزغاريد أنها إعلان براءة لسماح من بعض الهمزات واللمزات والغمزات لنسوة أوبنات..

جاء الميلاد فى موعده لا متقدما شهرا أو اثنين، ولا متأخرا مثلهما، انطلقت أم كامل تتلقى فى طريقها التهانى، نادت أم سماح لتصحبها معها، وتقدمتهما زينب لتدلهما على عيادة الطبيب الذى أجرى عملية الولادة..

* * *

قال كارم وهو ينظر لزوجته فى سخرية وتشفى:

- ربنا خيب ظنك..

- لست وحدى..

- أنت وغيرك.. ربنا دائما يظهر الحق لأنه الحق.. يعنى لوطاوعتك، ومشيت وراء أفكارك وظنونك، كنت خسرت سماح، وخسرت كامل .. ربنا يكملك بعقلك وتبقى مثل.مثلها كثير عليك..

- كفى تأنيب و حياة والدك..

قالتها أم سمير فى غضب، نهض كارم وقال:

ـ أنا خارج، سأنتظر لأرى حسن تصرفك..

- مطلوب منى أكثر من كلمة مبروك..

-والله صاحب العقل يميز..

وانطلق خارجا، اتجه إلى بيت أم سماح، يتابع النجار وهو يعمل فى إعداد حجرة الإدارة، يصنع مكتبين وثلاثة دواليب يحتوى كل منها عددا من الأرفف، وبعض المناضد لكى الملابس، وتطبيقها، وتغليفها..

اطمان على سير العمل، خرج متوجها نحو المقهى، جلس يتناول الشاى، جاءه عبد الله مهنئا:

- ألف مبروك والنبى تبلغها للأستاذ كامل..

- الله يبارك فيك..

ثم سأله:

- متى الإفتتاح إن شاء الله؟

- قريب بإذن الله، الآلات وتصل بعد أسبوع..

قال عبد الله مغلفا طلبه بالتمنى:

- أتمنى يكون لبنت أختى نصيب وتشتغل فيه..

فهم كارم فرد على الفور:

- زينب بنت المعلم عزوز هى المسؤولة عن اختيار البنات..

- ألف شكر يا أستاذ.. ألف شكر..

أرهف كامل أذنيه، ارتفع صوت خادم سيدى عباس معلنا وفاة الأستاذ حسنى، وتكرر بث النعى ثلاث مرات..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يرحمه..

ترددت بين جنبات المقهى، مع هبوط غيمة من الحزن على الوجوه، العيون تتطلع إلى الشارع الذى ازدحم بمرتاديه، كل الأقدام تتجه نحو درب العمدة، للمساعدة فى عمل الإجراءات للدفن..

(١٢)

تلقى كامل مكالمة أخيه، وضع سماعة الهاتف، نقر بأصابعة على سطح المكتب الصغير فى ردهة عيادة الطبيب، آثر ألا ينقل الخبر إلى الحجرة التى ترقد بها سماح وطفله أيمن، أيمن كامل، ارتسمت حروف الاسم فى رأسه ومخيلته، لم يأخذ رأى سماح بعد، لكنه يدرك موافقتها ورضاها عن اختياره، أيمن يحبو، يمشى، ينمو يقطع حجرات البيت مفتشا، منقبا، يكسر، يمزق، لعبه تملأ الأرجاء فى حجرته، فى الصالة، فى الشرفة، فى المكتب، ينعم بحريته، بطلاقته، بعفويته، رآه يرتدى مريلة الحضانة، تأخذه العربة لينضم إلى الأطفال زملائه، يلوح له مودعا، يستقبله بالأحضان، سماح تفترش الأرض، يتمرغ علي صدرها، بطنها، ساقيها، يعضها، يتعلق برقبتها، تهدهده، تقبله، تأخذه بين أحضانها، تطعمه، تسقيه، تحميه، تغنى له حتى ينام..

انتبـه، وجـد نفـسـه وحـيـدا فى الردهة، بضع خطوات، دخل الحجرة، سألته سماح :

ـ كلمت من؟

ـ كارم..

ـ ماذا يريد؟ لماذا لم يحضر؟

ـ يحضر بعد قليل، يباشر مايصنعه النجار..

ـ ليس أهم من ابن أخيه..

هل سيلحق موعد جنازة الأستاذ حسنى؟ كيف يترك سماح دون أن يخبرها؟ بماذا يتعلل؟ كل أهل الحى يودعونه، يعرفون جميعا بعضهم البعض، حتما سيؤدى واجب العزاء فى المساء، قد يسأله أحد عن تأخره عن الجنازة، بماذا يجيب؟

ـ هنأنى، وطلب إبلاغك تهنئته حتى يحضر..

قالت أمه مستفسرة:

ـ وهل يعرف مكان العيادة؟.

فرصة، ربما لايأتى كارم فيجد له عذرا، ينبغى ألا تشعر سماح بتقصيره، ربما...

ـ رد على ياكامل؟

ـ نسيت إخباره بمكانها.. ربما نكون فى البيت قبل مجيئه..

انهمك كامل فى جمع متعلقات زوجته وطفله، متشاغلا بعض الوقت، قالت أمه لسماح:

ـ بمجرد عودتى أعد الغداء، سأعد لك فرخة مسلوقة ترم عضمك..

قال أم سماح لكامل:

ـ الحمد لله، ممكن أسبقكم وانتظركم فى البيت..

قالت أم كامل:

ـ اسمحى لى ياأم سماح آخذها عندى، تحتاج خدمة، أنا أقدر.....

ـ إذا لم أخدم سماح فمن أخدم؟

ـ لاأقصد خدمة سماح، لكن استقبال المهنئين، إعداد الحلبة، تعرفين كثرة الضيوف.. وتعب خدمتهم.. و

ـ البيت واحد ياأم كامل، عندى، عندك، براحتها..

قالت سماح:

ـ يومان عند حماتى، وبعدها عندك ياأمى..

ـ راحتك ياحبيبتى..

قالت أم كامل لابنها:

ـ فتش عن الدكتور وأسأله عن موعد خروجها..

ـ قال لى بعد ساعتين أو ثلاثة..

كاد يقول الآن، لكن حديثه مع كارم اصابه بالتردد، يخشى أن تعرف سماح بالخبر السيئ تحزن، أو تتأثر، أو تبكى،.. أو.. أو.. قد يكون من الأفضل إخبارها..

نظر إليها مليا، تحتضن أيمن بين ذراعيها فوق صدرها، يفكر، يتأمل، يقول فى بطء:

ـ كونى حريصة على راحتك النفسية، إذا كنت تشعرين بأى تقصير فى بيتنا، أقصد بيت أبى، نذهب عند أمك، إذا رغبت أن

نعود إلى بيتنا وتصحبنا أمى وأمك لامانع عندى، اختارى المكان الذى ترتاحين فيه..

قالت سماح مندهشة:

- كلامك غريب ياكامل.. أنا ارتاح فى أى مكان أنت فيه، وماذا يعكر راحتى النفسية؟ نفسيتى عال العال، وفرحتى لاتسعها الدنيا كلها..

قال مترددا بعض الشئ:

- يعنى لو لم تقابلك أم سمير مهنئة، أو هنأتك بوجه عابس، أو لم يعجبك تصرف ما منها، تعدينى ألا تتأثرى، وألا تزعلى..

- أم سمير، وماأهميتها عندى، حتى لو لم تهنئنى بالمرة، لاشئ يحزننى أو يؤلمنى..

- عدينى ألا تترك الفرحة شفتيك، وألا أرى على وجهك أى تعبير غير الفرحة والسعادة..

- أعدك ياحبيبى.. أعدك..

نظر إلى أمه، أخذ أيمن من سماح ناوله لها قائلا:

- حفيدك أيمن..

قالت أم سماح:

- الله اسم جميل.. قومى ياأم أيمن.. قومى..

- مارأيك ياأم كامل؟

سأل أمه، ابتسمت ابتسامة كبيرة وقالت:

- يجعل حياتكم كلها يمن وبركة وسعادة... اختيارك ياابنى لايعلى عليه..

اعتدلت سماح، تناولت فستانها، قالت:

ـ نسيت تطلب رأيى.. وأنا أمه..

ـ رأيى رأيك ياحبيبتى.. أم لك رأى آخر ياأم أيمن؟

ارتدت فستانها، نظرت إلى نفسها، مسحت بيدها على بطنها:

ـ الفستان واسع ياكامل..

ـ ياستى ولايهمك، تركبى العربة من الباب للباب..

حمل كامل الحقيبة التى تضم ملابس طفله وملابس زوجته، سبقهم فى الخروج من العيادة إلى السيارة، وقف بانتظارهم، أقبلت سماح وجلست فى المقعد الأمامى بجواره، تناولت أيمن من أم كامل وضمته إلى صدرها، جلست أم كامل بجوار أم سماح فى المقعد الخلفى، انطلق كامل بالسيارة..

فكر كامل أن يذهب بهم إلى البيت، يستأذن ليلحق بالجنازة، تمنى ألا تكون صلاة الجنازة فى سيدى عباس، تمنى أن يصلوا إلى البيت فى سلام، قرأ فى سره بعض آيات القرآن، نظرت سماح إلى شفتيه متسائلة:

ـ مالك ياكامل؟

ـ اقرأ المعوذتين ليحفظك الله ويحفظ ابننا أيمن..

قالت أم كامل محذرة:

ـ لاتقرئى مثله من القرآن ياسماح.. حرام يابنتى..

ـ أعرف ياأمى.. أعرف..

قالت أم سماح:

- الحارس ربنا، ربنا يعمى العيون الحاقدة والحاسدة، ويملؤها بالتراب.. ربنا يابنتى يحميك من الحسد والحسّاد، ويحميك ياكامل ياابنى، ويتربى أيمن فى عزكم ويكبر ويبقى عريس..

- يارب ياحماتى يارب..

عند باب البيت، ترك كامل مكانه سريعا، اتجه إلى باب السيارة وفتحة لتخرج سماح، أمسك يدها وقادها إلى المدخل، لحقت بها أم كامل وسبقتها فى صعود الدرج، وقف أبو كامل فى استقبالهم سعيدا، تترقرق من عينيه دموع الفرح، مد يده وتناول أيمن من يدى سماح، قبله وبلل وجهه بدموعه الساخنة:

- ألف مبروك ياولاد.. حمد الله على سلامتك يابنتى.. ادخلى..

أفسح لها، قبل أن تدخل إلى حجرة الكنب قال:

- خذيها ياأم كامل إلى سريرك..

دخلت سماح حجرة نوم أم كامل، جلست فوق السرير، ساعدتها على الرقاد، غطتها بملاءة قائلة:

- نامى، ارتاحى، لاتتركى السرير مهما كان الأمر، احذرى الهواء، لو قعدتى ضعى اللحاف على وسطك وغطى صدرك..

- والنبى ياأمى عطشانه..

- حالا ياحبيبتى أحضر لك كوب حلبة.. الماء خطر، الحلبة ترم عضمك.. اصبرى.. مدت سماح ذراعيها، تناولت أيمن، قبلته، قالت:

- أيمن حلو ياعمى..

- بسم الله، ماشاء الله، اياك ترضعيه أمام أحد غريب.. فاهمه..

ـ أمرك ياعمى..

ـ واسمعى كلام حماتك تسلمى..

قالت أم سماح:

ـ كلام عمك فى محله، أنا نسيت الحمل والولادة من سنين طويلة..

دخلت أم كامل بالصينية فوقها كوب الحلبة المغات، قالت ضاحكة:

ـ ومن سمعك، لكن أنا تذكرت بسرعة..

ـ ياكامل.. كامل..

نادت سماح زوجها، قال أبوه:

ـ نزل مشوار، زمانه راجع..

ـ أحتاج ملابساً من البيت.. أغير الفستان الواسع علىَّ، احس بأنى حامل بداخله

ـ حالا، أول مايرجع أقول له..

تذكر أبو كامل بعضا من خبراته القديمة، تأهب لملاقاة كامل عند باب البيت، يأمره بالذهاب إلى بيته، الاستحمام ونفض غبار المدافن، ثم يعود ويحضر معه ملابس سماح.. اتخذ مجلسه فوق جانب من عتبة باب البيت يترقب عودته..

جاء الحاج عبده البقال، يجر قدميه فى تثاقل، حيا أبا كامل وهنأه لميلاد حفيده، ثم مشى يجر أقدامه جرا، وقف قرب باب الدكان وقال لزوجته:

ـ أنا طالع أريح جثتى على السرير..

يشعر الحاج عبده بأثقال الحزن على كتفيه، ينعى نفسه بوفاة الأستاذ حسنى، يصغره بأعوام كثيرة لايعرف لها عددا، يشعر وكأنه على شفا القبر، لم يجد فى نفسه القدرة على المشاركة فى التشييع حتى المدافن، شعر بقواه تخور، ثقل جسده على ساقيه، كاد أبو كامل يقوم ليلحق به ويساعده بعدما رآه يستند بيده اليسرى إلى حائط البيت، لكنه تذكر مهمته التى جلس من أجلها ـ على غير المعتاد ـ فوق عتبة باب البيت..

استقرت عيناه على «بنك» دكان الحاج عبده ـ قبل ربع قرن ـ وقف بجواره بعد العصر، قدم له ريالا فضيا وقال:

ـ لك ١٨ قرشا خذها وأعطنى قرشين..

ألقى الحاج عبده الريال فى الدرج وقال:

ـ باقى لى ٣ قروش.. أخذوا طلبات بـ ٢٣ قرشا..

ـ كيف ياحاج عبده.. قالت أم كامل ١٨ قرشا

ـ أخذوا عيش بـ٥ قروش، جاز بقرشين، زجاجة لمبة نمرة ١٠ بـ٣ قروش،...

أخرج أبو كامل شلنا فضيا من جيبه وقال:

ـ خلاص ياحاج عبده، خذ وأعطنى قرشين..

ـ مارأيك ياأبو كامل، منعا من وقوع خطأ خذ لك نوته، أقيد فيها ماتأخذونه..

ـ لامانع ياحاج عبده..

أخرج الحاج عبده نوتة صغيرة من الدرج، كتب على غلافها اسم «أبو كامل»، قدمها له وقال:

- هكذا أفضل حتى لانختلف على الحساب..

اكتشف أبو كامل على امتداد سنوات التعامل بالنوتة، زيادة أسعار البضائع المشتراه من الحاج عبده، وكان يقول فى نفسه «المحتاج مضطر»، أو «أى شئ بالتقسيط يزيد سعره»،..

هى نفس وقفته يوم قال للحاج عبده:

- كم حسابك ياحاج؟

أمسك الحاج عبده بالنوتة، قام بجمع المبالغ المدونة بها، قال:

- ثلاثة جنيهات ونصف..

قدمها إليه أبو كامل، كان قد أعدها بعدما قام كامل بجمع الحساب فى البيت، قال:

- لك جزيل الشكر، قطّع النوته لم يعد لها لزوم..

قال الحاج عبده وهو يمزقها:

- فعلا لم يبق بها إلا صفحة واحدة..

ومد يده لإحضار غيرها من الدرج، استوقفه أبو كامل قائلا:

- خلاص ياحاج عبده، ربنا تاب علينا من الشكك..

أغلق الحاج عبده الدرج وقال:

- أنا تحت أمرك فى أى طلبات..

- تشكر ياحاج..

بدأ يتنبه لبعض التحايا والتهانى من نسوة أو بنات، داخلات أو خارجات، يرد عليهن فى سعادة..

هب واقفا، وضع ذراعه يسد به الباب، قال لولديه:

- اغتسل أولا ياكارم قبل أن تدخل على زوجة أخيك، وأنت ياكامل اذهب إلى البيت، اغتسل واحضر لزوجتك بعض ملابسها..

استدار كامل على عقيبه، منصرفا إلى سيارته.. صعد كارم إلى شقته.. صعد أبو كامل الدرج على مهل، يصل إلى أذنيه بكاء حفيده أيمن، يدخل بسرعة قائلا:

- ارضعى الولد ياسماح..

قالت أم كامل:

- إنه يبكى لأننى أحمِّيه.. يبكى مثل أبيه وعمه..

قال وهو يتجه إلى حجرة الكتب:

- حمام الهناء..

اضطجع على الكنبة، واضعا مخدتيها الصغيرتين تحت إبطه، قال فى سعادة غامرة:

- الحمد لله أن رأيت ابنك قبل أن أموت ياكامل..

وقبل يده ظهرا وبطن:

- ألف حمد وشكر لك يارب..

(١٣)

وقف كامل فى انتظار مجيئ صلاح إمام، سئم الوقوف، تمشَّى فوق الرصيف الأوسط عاقدا ذراعيه على صدره، لايلوم صلاحا لأن موعده لم يحن بعد، إنما اعتاد أن يكون فى مكان اتفق عليه قبل الموعد ببضع دقائق، قد تكون عشراً أو خمساً، يحافظ دائما على الموعد، يعرف نفس الخصلة فى صلاح، يتوقع وصوله بين لحظة وأخرى..

يبتسم ونادرة فريدة تمر بخاطره، يوم اتفقوا على الذهاب إلى السينما، كانوا وقوفا عند الناصية، قال صابر حفنى بفخر واعتزاز، وهو يعبث ببعض النقود فى جيب بنطلونه:

- ادعوكم إلى السينما على حسابى بمناسبة استلام صلاح الوظيفة..

قال صلاح:

- والله فيك الخير ياصابر..

سأل حسن فخرى:

- متى نلتقى وأى فيلم تدعونا لمشاهدته؟

- مارأيكم أولا فى فيلم.....

قال حسن فخرى:

- سمعت أنه جميل..

وقال صلاح إمام:

- موافق..

وقال كامل:

- ندخل حفلة الساعة السادسة..

اعترض صلاح إمام قائلا:

- يعنى أزوغ من الشغل، وبعد يومين يرفدنى.. ندخل حفلة التاسعة..

قال صابر:

- اتفقنا، قبل ذهابى إلى الدكتور أحجز التذاكر، ونلتقى أمام سينما «كوزمو» فى الموعد..

قال حسن فخرى:

- الموعد من الثامنة والنصف حتى التاسعة، لنشاهد الجريدة المصورة..

التقى كامل وحسن فخرى - حسب اتفاقهما - عند موقف الأتوبيس فى الثامنة، أقلهما إلى قرب السينما، وصلا عند الثامنة

والنصف، بعد قليل وصل صلاح إمام، وقفوا يتحدثون عن الفيلم وفى نفس كل منهم أمنية قضاء سهرة جميلة للنقاش حول الفيلم، كالعادة، يتطلعون يمنة ويسرة مؤملين رؤية صابر يهل عليهم وفى يده تذاكر الدخول.. بدأ الغضب ينتاب صلاح، قال:

- أعرف صابر، لايحافظ على موعده، عنده الحياة سبهللة..

قال كامل:

- المهم يأتى قبل بدء الفيلم..

اقتربت الساعة من التاسعة والنصف، لمحة كامل قادما فى خطوات سريعة، قال:

- هاهو قادم..

أقبل صابر وقبل أن يبدى أى أعتذار فوجئ ومعه كامل وحسن بصفعة قوية من كف صلاح على خده الأيسر، طوح التذاكر فى الهواء واستدار على عقيبه، جرى حسن فخرى وراءه ليوقفه ويسترضيه وانصرف كامل إلى جمع التذاكر، ثم وقف أمام صلاح:

- ماذا فعلت ياصلاح؟

- ضايقنى تأخره.. يتعلم كيف يحافظ على الموعد؟

قال كامل فى استياء:

- تأخره لايستأهل تصرفك..

قال صلاح وقد بدا التأثر فى صوته:

- حقيقة لاأعرف كيف حدث هذا؟، تصرف من غير وعى..

عاد حسن فخرى ومعه صابر، قال حسن فى غضب:

- اعتذر ياصلاح وإلا..

احتضن صلاح صابراً، قبل وجنتيه قائلا:

- أنا آسف ياصابر، أنا غلطان..

قال صابر وهو يجفف دموعه:

- حصل خير..

عقب صلاح وهو يخرج نقودا من جيب بنطلونه:

- وتأديبا لى، العشاء على حسابى.. ماذا تأكلون؟

قال صابر مغتنما الفرصة للتشفى من صلاح بتغريمه مبلغا كبيرا من المصاريف:

- نأكل كبده ومخ، ومشروب طبعا..

انتبه كامل وتاكسى أجرة يركن بجوار الرصيف، نزل صلاح، نقد السائق أجره، حيّا كاملا وابتدره بقوله:

- تأخرت عليك..

- جئت فى الموعد تماما..

ثم ضحك وقال:

- كنت منذ لحظة أعايش ذكرى..

- جميلة بالتأكيد..

قال كامل:

- يوم سينما «كوزمو».. أتذكرها؟

فغر صلاح فمه على سعته وقال:

- ياه.. كانت أجمل الأيام

مشيا جنبا إلى جنب، يجوب كامل فى صمته حياة صلاح، مايكتنفها من غموض، فبعد الضيق آتاه الفرج وعلى سعة، ومشاكله

مع مـهـا مـازالت قـائمـة، لم يفكر فى الذهاب وإرضـائهـا، يـرضـى أسـرتها ويعيدها وابنه إلى البـيت، ومـازال أبوها متشـبـثا برأيه أن يذهب صلاح بنفسه ويعتذر له ولها ويتعهد بألا تتعرض ابنته لما تعرضت له من مهانة مع أصحاب الديون، بينما يجوب صلاح فى صمته، باحثا عن سر زواج كامل، وإتمامه خلال ثلاثة أيام، ودون أن يخبره فى أى من خطاباته بخطوات هذا الزواج، هل كان يحبها قبل السفر؟ وهل كان بينهما اتفاق مسبق؟..

قال كامل قاطعا الصمت:

ـ الولد صابر له وحشة كبيرة فى نفسى..

قال صلاح مستبشرا يزف خبرا:

ـ أوراقه جاهزة، فى انتظار عودته من ليبيا، دخول علاء الجيش سّهل خروجه..

ـ هل أبلغت عم حفنى؟

ـ عرف وفرح كثيرا .. فرح عم حفنى فرحتين، فرحة دخول علاء الجيش وزوال همه، عندما يخرج من الجيش يحصل على عمل فى الحكومـة أو أى شـركـة كـغـيـره، وخـروج صـابر وعـودته إلى عـمله وبيته..

قال كامل:

ـ والله عـملية تعـيين خـريجى الجيش عـملية مفـيدة للشـبـاب، وفرصة تشجع الشباب لدخوله..

قال صلاح:

ـ آلاف مؤلفة دخلت الجيش، يبدو أن هناك تعبئة عامة..

- حقيقة الموقف غامض، تكاد تنتهى سنة الحسم، ولم يحسم شئ بالمرة..

قال صلاح وهو يستعيد من ذاكرته موقفا أخذه على محمل الهزر:

- لاأنسى مقولة «أبى على» قبل حرب ٦٧ حينما قال.. «أحس أن الروس يقفون ليتفرجوا علينا لو حصل لنا شئ غير متوقع فى الحرب.. » أثبتت الأيام صدق كلامه.. علمت من بعض المصادر أنهم امتنعوا عن مدنا بالسلاح..

- معقول ياصلاح..

- قريبا تتضح الحقيقة..

توقفا عند الاقتراب من سرادق العزاء، قال كامل:

- لابد وأن الحاج حسن برهوم موجود فى السرادق.. منذ عدت وأنا أفكر فى زيارته لكن لم أتمكن..

- أنا لم ألتق به منذ قدوم المهجرين إلى الحى.. لابد وأنه غاضب منى..

قال كامل:

- أنا وأنت فى نفس الموقف.. لنأخذ كلمات التأنيب بصدر رحب..

دخلا السرادق بعدما قدما تعازيهما لأهل الأستاذ حسنى الواقفين فى صف طويل عند مدخل السرادق، اتخذا مجلسهما، ينصتان إلى المقرئ يتلو آيات القرآن الكريم..

يمر بين الحين والحين قريب المتوفى، يلقى كلمات على المعزين «شكر الله سعيكم» لمحا الحاج حسن برهوم وأخاه سيد يجلسان فى

آخـر السـرادق، بين عـدد من أهل الحى الكبـار فـى السن والمقـام، همس صلاح لكامل:

ـ واجب أن نسلم على الحاج حسن بعد انتهاء المقرئ..

هز كامل رأسه موافقا..

انتـهى المقـرئ من قـراءته، انتظرا حـتى يخـرج المعـزون، أقـبل نحوهما سيد برهوم، صافحهما وشكر لهما حضورهما وسعيهما، ثم صحبهما إلى مجلس الحاج حسن برهوم، قام ومد يده مصافحا وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه:

ـ أهلا بالناس الهاربة..

قال صلاح إمام:

ـ مشاغل والله ياحاج..

قال الحاج:

ـ فيه يوم أجازة.. أو مناسبة.. طيب وكامل..؟

قال كامل:

ـ بصراحة لاعذر لى..

قال الحاج حسن وهو يدعوهما للجلوس بجواره:

ـ أعرف عذرك، «شهر العسل»..

قال صلاح:

ـ يعوض السنين الضائعة..

أردف صلاح وهو يبدى قلقا للانصراف:

ـ إن شاء الله نزورك قريبا ياحاج..

قال كامل موافقا:

- اعتبره وعداً ياحاج..

قال الحاج حسن وهو يودعهما:

- وعد الحر دين عليه..

صحبهما سيد حتى خرجا من السرادق، حاول استضافتهما، اعتذرا، قال لصلاح:

- الولاد مشتاقون لك ياصلاح..

- أنا متشوق لهم أكثر، إن شاء الله أراكم فى القريب..

قال سيد برهوم فى شئ من الحرج:

- الحقيقة والدتك حزينة لوضعك.. تسمح لى أتدخل ونحل المشكلة..

قال صلاح:

- كل شئ بأوان ياأبو حسن..

صافحاه وانصرفا، ابتعدا عن السرادق، قال كامل لصلاح:

- خلعنا من الحاج حسن، ومن سيد، لكن لن تقدر على خلع نفسك منى..

قال صلاح:

- طبعا لاأقدر.. أنا معك حتى الصباح..

سارا إلى بيت كامل، يتبادلان الحديث عن حسن فخرى، قال صلاح:

- ثبت أن الولد حسن عديم الأصل..

ـ أنا عذرته لما عرفت ظروفه..

ـ مهما كانت، واجب أن يسأل، هل عرفت أنه انتقل قريبا من العاصمة، يعنى عاد إلى شقته التى تزوج فيها.. أى عذر يمنعه عن الاتصال بالتليفون..

قال كامل يدعوه:

ـ تفضل ياصلاح، سيسر أبى لرؤيتك جدا.. وسيسرك مفاجأتى..

وقف صلاح عند البسطة متسائلا:

ـ أى مفاجأة؟ لاتضعنى فى موقف حرج..

شده كامل من ذراعه ودخلا إلى حجرة الكنب، صافحا بعض الضيوف، وكارم، جلس صلاح إلى جوار والد كامل، قال أبو كامل بعد أن رحب به:

ـ أخوك ربنا كرمه بأيمن..

قال صلاح فى ثورة هادئة:

ـ ابنك عمره مايبطل خبث، فوجئت بدعوته عند الزواج، والآن فوجئت..

قال كامل ضاحكا:

ـ المفاجآت لها طعم حلو..

ـ اسمح لى، أمام الجميع، أنت غلطان.. على الأقل كنت اشترى هدية للمولود..

قال أبو كامل:

ـ فى الأيام متسع.. كل عمره يادوب ١٢ ساعة..

قال صلاح مندهشا:

- يعنى ولادته صباح اليوم.. طيب ياكامل، حسابك عسير..

قال كامل مبتسما:

- لاتهتم ، تشرب حلبة أو مغات..

- يادمك ياأخى، خليها مفاجأة بالمرة..

- لا بجد، ماذا تشرب؟

قال صلاح وهو يتوعد كامل بغمزات عينيه:

- مغات لأجل أيمن السعيد..

قال كارم معلقا:

- أيمن كامل ياأستاذ صلاح..

قال صلاح معقبا:

- عندما يصير أبوه كاملا نناديه بأيمن كامل..

وانخرط الجميع فى الضحك..

(١٤)

تلقى كامل الخبر، دار حول نفسه، تفتت مشاعره داخل قفصه الصدرى، هم بالخروج من المكتب، شئ ماأوقفه، فكرة غائمة تدور فى مخيلته، يحاول الإمساك بها، تراوغه، رفع سماعة الهاتف لبعض الوقت لعله يصطاد الفكرة المراوغة، اتصل بالبيت، أخبر سماح بذهابه إلى الحى، نقل إليها خبر عودة صابر حفنى صديقه، تلقى فرحتها الغامرة عبر الأسلاك، أمسك بالفكرة المراوغة، رفع سماعة الهاتف ثانية، أدار القرص:

ـ آلو.. الأستاذ صلاح إمام من فضلك؟

لحظات، جاءه صوت صلاح مرحبا قال فى فرحة:

ـ أهلا ياصلاح، صابر وصل بالسلامة.. أخبرنى أخى كارم.. أمر عليك.. أراك بعد قليل..

وضع كامل سماعة الهاتف، غادر المكتب..

تذكر وهو يستقل السيارة أن سماح ربما تستاء لتأخره، لايعرف للوقت قيمة بين أصدقائه، وللحقيقة أنهم لايشعرون بمرور الوقت، فكر أن يمر عليها ويصحبها إلى بيت أمه أو بيت أمها وبعد قليل، استقر على طلبها عندما يذهب إلى صلاح ليصحبها عم عبده إلى الحى، يخترق كامل الزحام متسرعا فى قيادته، قال صلاح:

- على مهلك اعمل معروف..

قال كامل مبتسما:

- اكتسبت خبرة كبيرة فى القيادة، للزحام أخلاقيات اكتسبتها، لو حافظت على القواعد لن تصل أبدا..

ثم نظر إليه بجانب عينيه وقال:

- كم تكلفك تنقلاتك فى اليوم؟ عشرة جنيهات..

قال صلاح:

- ربما أكثر..

- يعنى لو اشتريت لك سيارة خاصة، ألا ترى معى أنه أكثر فائدة وتوفيرا..

ضحك صلاح وقال:

- أحب أن أكون هكذا.. يكفينى تفضل يابيه، مع السلامة يابيه.. ولو امتلكت سيارة هل أقولها لنفسى؟

- آه، معك حق، نسيت..

تعتاد قيادة كامل للسيارة الآلية، يشرد، صلاح إمام، حلم أحلامه أن يتخرج، يجلس على المكتب يدق الجرس، يأتيه العامل، يسمعه

يقول «يابيه»، تعود أن يدفع بقشيشا سخيا فى أى مكان يرتاده، يشد انتباه من يخدمونه سواء كان فى مطعم، أو كافيتريا، أو مقهى، أو محل، يكفيه تلقى كلمة « تشكر يابيه»..

استرد كامل وعيه فجأة وقد أوشك أن يصطدم بسيارة توقفت توقفا مفاجئا، لعن سائقها، قال:

- قل لى لماذا توقف؟ ليس أمامه سيارات..

وقائد السيارة أمامه يميل ناحية الرصيف ويركن السيارة، أردف قائلا:

- لنر سبب توقفه..

غادر سيارته، تأكد من غلق أبوابها ونوافذها، فتح حقيبتها الخلفية، أخرج بعض المشتروات وأغلقها جيدا، دخل إلى مسكنه..

قال صلاح ضاحكا:

- له الحق فى التوقف المفاجئ، تذكر أن هنا بيته..

ضرب كامل راحتيه ببعضهما متعجبا، قال وهو يبدأ الانطلاق:

- هذه عينه واحدة، فما بالك بسائقى النقل العام، وسيارات الجيش والبوليس، يظنون جميعا أن الشارع ملكا لهم..

ثم استطرد:

- ولو أن سيارات الجيش تكاد تختفى من الشوارع، هذا لاينفى رعونة سائقيها..

قال صلاح:

- أغلب سائقى سيارات الجيش يتعلمون فى المعسكرات، مناطق خالية.. ويحصلون على الرخصة بسهولة..

تابع صابر بعينيه سيارة تدخل الشارع، وقفت تحت الشرفة، خرج من بابها الأيمن صلاح غادر صابر مكانه سريعا، قفز درجات السلم، أمام باب البيت كان اللقاء حارا، قبلات وأحضان ضحكات وابتسامات.. أحاديث شتى دون رابط أو جملة مفيدة..

ألقيا التحية على أم صابر وأختيه، دخلا حجرة الكتب، صافح صلاح عم حفنى ومال مقبلا وجنتيه ثم جلس إلى جواره، مثله فعل كامل وجلس على الكنبة المقابلة إلى جوار صابر..

قال صلاح مداعبا عم حفنى:

- مبسوط ياعم..

- إلا مبسوط، مبسوط ومبسوط ومائة مبسوط..

قال كامل وهو ينظر طويلا فى وجه صابر:

- والله لك وحشة يامضروب..

قال صابر فى تأثر شديد:

- قضيت أياما وشهورا يعلم بها الله، عشت ذكرياتنا مرة ومرة ومرات، إذا مررت بأزمة نفسية، أو غضب، أو نرفزة أهرب للماضى، كلنا كنا فى أيام عصيبة، كنا نتسلى بالتاريخ، كل واحد يحكى تاريخ حياته، الأحداث، الأحلام، معاناة أدعو إلا تتكرر فى حياتى مرة ثانية..

قال كامل:

- لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع.. ربما حالك أحسن بكثير من الأحوال على الجبهة..

عقب صلاح:

ـ سلمت مهماتك..

ـ سلمتها وقلت «أشهد أن لاإله إلا الله»..

وضعت رومية صينية الشاى فوق الترابيزة الصغيرة تحت شباك المنور، تبادلت الابتسام مع كامل، سقطت عيناها إلى الأرض وهى تخرج مهرولة..

قال صلاح مداعبا عم حفنى:

ـ ماأخبار التبن والردة؟

قهقه عم حفنى ثم وضع يده على فمه خشية سقوط طقم أسنانه، قال بعد برهة:

ـ الحمد لله، نأكل لحم وفراخ، أخوك أحضر لنا التفاح الأمريكانى من ليبيا..

علق صلاح قائلا:

ـ نتيجة رفع الحراسة، أبوك ياصابر شم نفسه..

صفق عم حفنى بيديه قائلا:

ـ الحمد لله، أنظف من الصينى بعد غسيله، لا كنا إقطاع، ولا كنا إخوان..

قال كامل متسائلا فى خبث:

ـ ورأيك ياعم حفنى فى الرجل؟ تفهمنى طبعا..

ـ ربنا يحميه، بدأنا نعيش بعد مصارين البطن مانشفت، ربطنا الحزام، كل يوم نضيقه، نضيقه لغاية مانشف المصارين.. ياه.. فى يوم استقر فى دماغى أسافر بالعيال للصعيد.. على الأقل عيش الذرة متوفر هناك..

- وتبعد عن المدينة؟

قالها صلاح، قدم سيجارة لعم حفنى، ولصديقيه كامل وصابر أردف قائلا:

- عمرى ماسمعت عن انسان جاء للمدينة وعاد بعدها لبلده، كل الناس هجرت الريف.. وأنت تهجر المدينة..

قال عم حفنى:

- نفسى قبل موتى ياصابر أفرح بأولادك..

ثم اتجه إلى صلاح وبعده كامل:

- ابحثا له عن عروسه...

قال صلاح:

- جهزت المهر..

قال صابر فى أسى:

- إسأله عن الشقة قبل المهر..

قال عم حفنى:

- شقتنا واسعة، أنا بدأت حياتى مع أمك فى حجرة.. إبدأ وربك يرزقك..

قال صلاح:

- أى واحدة تطلب شقة ياعم حفنى..

- لاتلزمنا.. يختار من بلد أمه.. بنات خالاته، كل البلد تتمنى تناسبنا..

أمال صابر رأسه على صدره، تمر بخاطره يدها الحانية تحتضن يده، يهفو شعرها المتناثرة خصلاته تلمس جبهته وعينيه،

تداعبه فى حنو، تلمه بقبضة يدها وتلقى به خلف ظهرها، يتشمم أنفاسها وهى تهمس له بالحب..

- صابر..

قالها كامل، يقبل ظهر يدها، تمسح شعر رأسه، تدفن ضحكتها الرقيقة فى صدره، تركن رأسها على كتفه..

- أنت يابجم..

ينتفض صابر، تطيح يده بأكواب الشاى الفارغة فوق الصينية بجواره..

- هه..

يقول صلاح متغنيا:

- عقلك راح فين راح فين..

يقول صابر ضاحكا:

- سافر لوبيا.. قصدى ليبيا..

قال عم حفنى فى جدية:

- أنا أستأذن.. خذوا راحتكم..

قام، استند على الكنبة حتى الباب، مدت له أم صابر العصا، أخذها، إتكأ عليها حتى حجرة النوم، قال فى أمر:

- جهزى لهم الغداء يأم صابر..

أغلق صابر باب الحجرة عليهم، جلس إلى جوار صلاح وسأله:

- أصحيح الخلاف بينك وبين مها؟

قال صلاح مشوحا بيده:

- لاتذكرنى..

- ترضى ابنك يربِّيه ويرعاه الأستاذ سلامه..

قال صلاح:

- كرامتى لاتسمح لى أن أعتذر له، أو أترجاه..

قال كامل:

- حاولت معه كثيرا، لكنه يضع كرامته فوق أى اعتبار آخر..

قال صلاح متبرما:

- نتكلم فى موضوع آخر..

قال صابر:

- أمرك يابيه، علمت أن الأمور المالية متيسرة معك على الآخر، سهرات، كباريهات، تنقلاتك كلها بالتاكسى، وماخفى كان أعظم..

قال صلاح:

- شئ عادى.. كل الناس بدأت تكسب..

- المهم أن يكون المكسب بطريق مشروع..

- ومن قال لك غير ذلك؟ أنا اشتغل بالتجارة.. اشترى من مرسى مطروح، أبيع، وأكسب..

قال صابر لكامل:

- هل تصدق؟

هز كامل رأسه يمينا ويسارا، قال بعد لحظة صمت:

- الحقيقة أحيانا أصدق، أحيانا أخرى لاأصدق.. كل مالاحظته أن صلاح يحيط نفسه بهالة من الغموض..

قال صلاح ليبدد القلق حوله:

- ياجماعة أنا لاأسرق، لاأتاجر فى المخدرات.. كشك السجائر يكسب، البياع المتجول يكسب، سائق التاكسى يكسب، عمال البناء يكسبون، ماالغرابة فى أنى اكسب؟

قال كامل مغتاظا:

- لايبدو عليك أى جهد لتحقيق مكسبك.. مكسبك مكسب البهاوات والباشوات.. يعنى مكسب بدون حبة عرق واحدة..

قال صلاح لكامل:

- وهل أنت تسرق؟

قال كامل:

- أنا كنت استحم بعرقى كل يوم، أخوك طفح الدم فى غربته، كنت كل يوم أفكر فى الرجوع، لكن أرجع لوالدى يطعمنى، يصرف على.. لاأحد يعلم أننى تركت العمل، لم أستطع الحصول على إجازة بدون مرتب.. أنتم تعلمون أن الأجازات كانت للمحاسيب.. لاأحد يعلم جهنم، أنا عشت فيها، بين أناس شامتين فى بلدك، ينفثون شماتتهم مع كل خبر، أو عنوان فى جريدة، يتهمون بلدك بأنها سبب الهزيمة، لم أكن أستطيع الرد، أستطيع أن أوجز ماقيل عن حرب الاستنزاف، التى اعتبرها دلالة قوية وواضحة أن بلدنا تقاوم، وستظل تقاوم حتى تنتصر، كانوا يقولون فى سخرية «سألوا كلب العرب بتهوهو ليه؟ قال لهم خايف وبأخوف».. ماذا تفعل إذا قيل لك هذا عن أى فرد فى بلدك؟

قال صلاح محاولا قفل باب الحديث:

- أنا آسف، لكن لاتخافوا.. أنا بخير..

قال صابر فى إصرار:

- كل الناس بخير، ونخشى أن نفاجأ بالشر.. كل مايهمنا كأصدقاء أن تعود لزوجتك وابنك، وأن تخذل الشيطان وتعود إلينا صلاح الذى نعرفه..

قال كامل وهو ينظر فى ساعته:

- على كل حال، أنتما مدعوان للغداء عندى غدا..

قال صلاح معتذرا:

- اعفنى من الدعوة، أسافر غدا لمرسى مطروح.. هل يأتى أحدكما معى؟

قال كامل معتذرا:

- لا مصلحة لى فى السفر..

وقال صابر:

- بودى أن أصحبك، لكنى ألبى دعوة كامل لأرى زوجته وطفله.. كم عز علىَّ فى غيابى زواجه.. ولكن والله فرحت جدا..

ثم قال لصلاح:

- ثق أنى سأسافر يوما مامعك لأعرف سر تجارتك المربحة، ربما تستهوينى وأتعلم منك..

قال صلاح وهو يتمطى واقفا:

- انت وحظك..

اتجه صلاح نحو باب الحجرة، فتحه، جاءه صوت أم صابر:

- الغداء جاهز ياأستاذ صلاح.. تعالى ياصابر ساعد أختك فى نقله..

قام صابر، دفع صلاح إلى الداخل حتى أجلسه فوق الكنبة، قال لكامل:

- انقل الترابيزة فى الوسط..

قام كامل، نقل الترابيزة بين الكنبتين، جلس إلى جوار صلاح قال هامسا:

- إياك تزعل منا ياصلاح.. تعرف شعورنا..

قال صلاح:

- أزعل منك أو أزعل من صابر.. غير ممكن طبعا...

انتهى صابر من إعداد مائدة الطعام، أحضر كرسيا من الشرفة، اتخذ مجلسه فوقه وظهره لباب الحجرة قال:

- كلوا وادعوا لأم صابر..

قال صلاح بصوت عال:

- ربنا مايحرمنا من أكلك الحلو..

وقال كامل:

- إن شاء الله نأكل فى القريب وأنت أم العريس..

قالت وهى تضع على الترابيزة شفشق الماء الزجاجى والكوب:

- يارب أعيش ليوم زواج أولادكم.. وأطبخ وأقدم الشربات.

غادرت أم صابر الحجرة، شدت بابها وراءها، قال كامل:

- أمك طيبة جدا ياصابر..

قال صلاح ضاحكا فى سخرية:

- مثل أمى..

تبادلوا النظرات، والضحكات، قال صابر:

- بدليل يوم فرحك كنت خايف لتتقم منى..

أصاب صابر الصمت فجأة، قطعه قائلا فى أسى:

- ياخسارة، القعدة ينقصها حسن فخرى.. ياترى ماأخباره؟

نظر إليه صلاح مغضبا وقال:

- أرجوك، ممكن نأكل فى هدوء..

هز صابر رأسه بالموافقة.. ثم صاح:

- أما زلت تأكل على الجانبين؟ سبحان الله..

- لأشبع يابنى..

تطلع كامل وصابر إلى فم صلاح ممتلئا يمضغ الطعام على الجانبين، يدارى كل منهما ضحكته..

(١٥)

يشعر صابر بفقدان جزء كبير من حياته، يحاول إقناع نفسه بسقوطه منه فى الطريق، أوسطا عليه نشال فى الأتوبيس، لكنه يوما بعد يوم يشعر بفداحة مافقد، تبدد حلمه الكبير، وشاركته فيه مها زوجة صلاح، تخيل، رسم، أكتملت اللوحة فى ذهنه، استعرض حلمه مع أصدقائه وزملائه فى غربته، يلهى نفسه وهو يؤدى نوبتجية الحراسة المكلف بها، تحت المطر المنهمر، وتيارات الهواء البارد، يحكى عن أصدقائه، الذكريات الماضية، يتخيل المستقبل..

اجتمعوا للرحلة هو وزوجته، صلاح وزوجته، حسن وزوجته، كامل وزوجته، قد تكون إلى القناطر الخيرية، الهرم، حلوان، أو فى المصيف بأحد الشواطئ، يرى صغارهم يمرحون يتضاحكون، يلهوون، يتطلع إلى خلق صداقة بينهم مخلصة، نقية، طاهرة، وتستمر مسيرة الآباء يحملها الأبناء، وقد تمتد إلى الأحفاد..

وجد نفسه وحيدا، صلاح مشغول بنفسه، بسهراته، بأصدقاء جدد ربطت بينه وبينهم أعمال لايدرى كنهها، كامل مشغول بزوجته وابنه أيمن، ومصانعه ومشروعاته، يتحمل وحده عبء صداقة امتدت لسنوات وسنوات، يزور كامل أيام عطلاته، يجد حقيقة الترحيب والضيافة الحميمية من زوجته سماح، ينسى نفسه ومشاعره، وينزع نفسه انتزاعا بعد قضاء بعض الوقت بينهم..

يلتقى وصلاح إمام فى المكتب، أو على الغداء فى الكافتيريا، وقد يمضى السهرة معه فى الملهى الذى يرتاده، لكنه بعد عدة مرات أدرك أنه يسير فى طريق لم يهيّأ له، يخشى افتضاح أمره بين أسرته والجيران، بعد كل سهرة ينقده صلاح أجرة التاكسى، ويودعه، عرف منه أنه يقيم فى بيت زميل له فى مدينة نصر، يعود وحده، ما أن يغادر التاكسى ويلفحه الهواء يصيبه القيئ، يفرغ كل مافى معدته من طعام أو شراب البيرة الذى تجرع العديد من زجاجاته، امتنع تماما عن مصاحبة صلاح فى سهراته..

يحاول بذل كل مافى وسعه للتوفيق بين صلاح ومها، اضطر آخر الأمر إلى تهديدها:

- صلاح على شفا الانحراف، إذا لم تعودى إليه تفقدينه إلى الأبد..

ولم يزد، قالت بعد فترة:

- أفكر..

نجح فى انتزاع موافقتها على اللقاء مع صلاح لتصفية الخلافات دون تدخل من أبيها أو أمها، وتحدد الموعد والمكان..

بارقة أمل برزت فى خياله، يعود صلاح إلى مها، تفتح شقته المغلقة أبوابها وشبابيكها، يؤوب صلاح إلى بيته وزوجته وابنه، يقضى بينهم أمتع الأمسيات، يشعر بالسعادة التى فقدها.. توطدت صداقته مع أمير، استطاع أخوه الضابط نقله إلى نقطة حراسة فى أحد السنترالات القريبة من البيت، وحصل على تصريح مبيت، يلتقى كل ليلة به..

بدأ صابر يلم بالتغيرات التى حدثت فى غيابه، يدهشه ماعرفه عن سكان المدرسة والخندق، احترف الصبية السرقة والنشل، كانت البداية سرقة الفراخ من البيوت المطلة على الشارع الدائرى، وذبحها وأكلها، سرقة الخضر والفاكهة من الباعة فى السوق وسط الزحام، ثم بدأوا يركبون الأتوبيسات وينشلون ركابها، استغل أبو سريع حاجتهم للمال، اشترى ماجاءوا به بأسعار رخيصة، باع العربة والحصان وافتتح محلا لبيع الأثاثات القديمة، ثم بدأ يعرض آثاثات جديدة، وعلق يافطة كبيرة تلفها لمبات النيون «معرض موبيليا أبو سريع»..

يتحاشى صابر الاقتراب من المدرسة فى الليل، حكى له أمير مايفعله بعض الشباب مع بعض البنات والنساء المقيمات فى فصول الدور الأرضى، فى الليالى المظلمة، أشار أمير إلى الأركان والزوايا وقال:

ـ هنا يرتع البغى..

ويلتمس أمير لهم الأعذار، وهو يشعر بالأسى:

ـ كيف يعيش الفرد كبيرا أو صغيرا بثلاثة جنيهات فى الشهر؟

يعرف أن الحاج حسن برهوم أصابه المرض ولم يعد يغادر بيته، لعدم قدرته على صعود أو هبوط السلم.. أما أخاه سيد فقد فتح الله عليه، حول المندرة القديمة إلى محلين كبيرين أحدهما لبيع التليفزيونات والمسجلات وأجهزة الراديو، واتسعت تجارته بما يكسب من عملية البيع بالتقسيط، أما الثانى فقد أغلقه لوقت الحاجة..

زار مصنع سماح لملابس الأطفال، استقبله كارم بحفاوة بالغة، وعرض عليه كامل العمل مع أخيه لكن صابر رفض وقال:

- عاشت صداقتنا لأنها كانت بعيدة عن المصالح، عن المعاملات المالية، تعرف ياكامل أن المال مفسدة بين أخوين فما بالك بين صديقين.. أريد الاحتفاظ بصداقتنا إلى الأبد..

عرض عليه كامل أخيرا أن يفكر فى البحث عن محل واستئجاره ويساعده فى تجهيزه ليكون معرضا لعرض وبيع ملابس الأطفال.. استحسن الفكرة، ومازال يفكر فيها..

مر على المقهى وشعر لأول وهلة بافتقاد الشجرة العتيقة وحركة وضوضاء العصافير..

افتقد كل من عرفهم، أثناء المذاكرة فى الشارع، أثناء لعب الكرة، والفرق المتنافسة، كل من اشترك معهم فى بعض الرحلات، بعضهم تزوج وانتقل إلى أماكن أخرى بعيدة، أغلبهم جند بالجيش، بعضهم سافر للعمل فى الخارج..

يشعر بالحزن والكمد كلما تذكر زيارته لحسن فخرى، بعد أن أنب نفسه لقيامه بالزيارة لاينكر استقبال حسن له فى مودة،

ومحبـة، لكنه بدأ يعـرض مشـاغله فى التدريس، وانتقـاله من بيت لبيت لإعطاء الدروس الخصوصية، فهم أول مافهم أن تكون زيارته بعد ذلك محددة ومتفق على موعد عبر الهاتف، وبمجرد أن خرج من البـيت مـزق الورقـة المدون بهـا رقم الهـاتف، تطلع إلى البـيت، دمعت عيناه وهو يشعر بتمزق فى صدره لفقده حسن فخرى إلى الأبد..

يتمشى مع أمير كل ليلة يحضر للمبيت فيها بالبيت، لايمل تكرار سؤاله له:

ـ ماالذى حدث للناس؟

يرد عليه أمير:

ـ انفراجة حرية صغيرة أخرجت الناس عن حياتها المعتادة، زوج خالتى مثلا، كان عاملا فى شركة قطاع عام، باع ماورثه وفكر فى شـراء تاكسى يعمل عليـه بعد الظهر، خاف، خاف أن يراه أحد زملائه ويبلغ عنه الشركة فتفصله، كان ممنوعا الجمع بين عملين، عطل هذا المنع، الآن اشترى اثنين، واحد يعمل عليه، وآخر يعمل عليه سائق بالأجر، وكالعادة، يحصل على إجازات مرضية، ويعمل على التاكسى ليلا ونهارا..

يعـود صـابر من عـمله كل يوم، يأخذ بعض الراحـة، قد يغفـو سـاعـة، وقد لايغفو، يجلس فى الشرفة، ينتظر عودة أمير، يشعر بالضـيق، والقلق إذا اضطر أمـيـر إلى البـقـاء ليلة أو ليلتـين فى وحدته، يشعر صابر بالضياع، لم يعتد الجلوس على مقهى، لم يعتد الذهاب إلى سـينمـا أو كـازينو وحـده، لم يعـتـد التـمـشى على الكورنيش، أو حول الحى وحده، لم يعتد.. لم يعتد الجلوس وحده

فى الشرفة..

قرر فى نفسه أن يعود للغربة، أمامه مهمة وحيدة ويبدأ بعدها السعى للحصول على عقد عمل من المكاتب التى انتشرت، ويسافر..

***

وقف أمام باب الكازينو عندما لمح كامل يركن سيارته، دخلا معا بعدما تصافحا، اتخذا مكانهما فى مكان منعزل يطل على النيل، قال كامل:

- هل تثق فى وفاء مها بموعدها والحضور..

- تعرف مها ياكامل، تحب صلاح لكن ظروفه المادية فرقت بينهما..

- الحمد لله، تعتبر المشكلة منتهية..

- أنا واثق أن وجودهما معا وحدهما، يذكرهما بالحب الكبير، بالمشاعر الدافئة..

- ربنا يهيئ خير..

وقف كامل وهو يلمح مها تقترب ، التفت صابر وقام مرحبا، صافحتهما، دعاها صابر للجلوس مكانه، جلس على كرسى آخر، قالت مها لكامل:

- واحشنى جدا ياكامل..

علق صابر قائلا:

- وأنا..

- كنت معى من أسبوع.. كامل لم أره منذ سنوات، عندما كان

يزورنا من سوء حظى أكون بالخارج أشعر بالأسف عندما أعود وأعرف بزيارته..

نظر صابر إلى ساعة يده، قال:

ـ أرجوك يامها، أرجوك تحملى صلاح، قد يكون وقع المفاجأة عليه كبيرا، قد يغضب، قد يثور، تحملى حتى يهدأ.. أرجوك..

ـ أمرك ياصابر..

قال كامل:

ـ سنجلس على ترابيزة أخرى قريبة، تحت أمرك وقت اللزوم.. وإذا سارت الأمور على مايرام نستأذنكما فى الانصراف..

قالت مها بحب وإعزاز:

ـ كلمة الشكر لاتفى بنبل أخلاقكما وموقفكما..

ـ أنت أختنا الصغيرة يامها..

قالها كامل، ثم ركل صابر فى قدمه ركلة خفيفة قائلا:

ـ صلاح وصل..

قام إليه صابر، وفى حركة لاإرادية رفع كفيه إلى وجنتيه، وقف صلاح لحظة مبهوتا، أضحكه منظر صابر، اقترب من الترابيزة، صافح كامل، ومد يده لزوجته:

ـ أهلا يامها..

صافحته، أجلسه كامل مكانه، وقف إلى جوار صابر قائلا:

ـ دعونا نرد بعض الأفضال، اطلبا ماتشاءان على حسابى..

انتقل كامل وصابر إلى ترابيزة أخرى، اختار كامل أن يكون ظهره لهما، وجلس صابر فى الناحية الأخرى... جاء الجرسون، لبى الطلبات للترابيزتين، عينا صابر ترصد الموقف:

ـ مـهـا تتكلم.. مـهـا تسكت.. مهـا تبكى.. مـهـا تجـفف دمـوعـهـا بمنديل صـلاح.. مهـا تشـرب الليـمـون.. مهـا تنظر إلـى السمـاء، مهـا تبتسم، مها تضحك، تعبس، تهز كتفيها، تهز رأسها، تشرب، تتكلم،

قال كامل وهو يرشف عصير البرتقال:

ـ الحمد لله.. خير إن شاء الله.. أعتقد أن مهمتنا انتهت..

قال صابر:

ـ مها تشير إلينا..

التفت صلاح ناحيتهما وقال:

ـ تعالى يامجلس الأمن..

قاما ضـاحكين، دعـاهمـا صـلاح للجلوس، جلسـا كتلمـيذين فى حضرة أستاذهما..

فـجـأة سـمـعـا هتـافـا يخـرج من مكان مـا بالكازينو، لمح كـامل الجرسـون فـأشـار له، اقتـرب والبـشـاشـة بادية على وجـهـه، بـبـسـمـة عريضة قال:

ـ تحت أمرك..

ـ سمعنا أصواتا تهتف « الله أكبر.. الله أكبر » ماذا حدث؟

– رجع لنـا اسم بلدنـا مـصـر يـابيـه.. اسم بلدنـا الغـالى علينا.. سمعنا فى الإذاعة، جمهورية مصـر العربيـة.. بشاير انتصـارنا بإذن الله على الصهاينة..

قال كامل:

ـ بالمناسبة السعيدة نشرب حاجة حمراء..

ـ عندنا فراولة يابيه..

ـ نشرب فراولة..

ثم التقت عينا كامل بعينى مها فعينى صلاح، ابتسم وقال:

ـ ذكرى تاريخية..

قال صابر:

ـ فعلا.. ذكرى تاريخية يصعب نسيانها..

سقطت عينا كامل على الأمواج فى سرعة جريانها، جرت الأعوام، كان صغيرا يوم خرج مع صلاح ضمن تلاميذ المدرسة، مشيا على الأقدام يتقدمهم مدرس التربية الرياضية إلى ميدان كبير عرف يومها أنه ميدان عابدين، وقفوا صفوفا، عدد هائل من تلاميذ المدارس، يملأوون الميدان الفسيح، ظهر الرئيس وبصحبته رئيس جمهورية سوريا، هتفوا بعدها «تحيا الجمهورية العربية المتحدة..» هتفوا وهتفوا، يذكر أيضا رؤيته عن بعد للمغنى عبد الوهاب وهو يغنى..

التفت إلى صلاح وقال:

ـ هل تذكر يوم أخذونا من المدرسة إلى ميدان عابدين..

قال صلاح فى دهشة:

ـ ياه ياكامل، يوم رجعنا كالمكسحين، كدنا نبكى من التعب..

ثم أردف:

ـ أمى بكت، أحضرت «أنجر» مياه ساخنة، وضعت قدمى فيها حتى بردت..

وضع الجرسون أكواب الفراولة أمامهم وانصرف، قال صابر:

ـ أقوم فورا وأهتف يحيا الحب.. يحيا الحب..

قال صلاح ضاحكا:

ـ عشرة جنيهات منى لو عملتها..

ـ أنا عيِّل واعملها..

قام صابر ونفذ ماقاله، ثم عاود الجلوس:

ـ ناولنى..

عبث صلاح فى جيوبه، أخرج رزمة من عشرات الجنيهات، قلبها، أخرج ورقة قدمها لصابر قائلا:

ـ جديدة بشوكها..

قبلها صابر ووضعها فى جيبه حامدا الله..

قال صلاح:

– نتكلم فى الجد، اتفقت مع مها أن كل شىء يرجع للشقة مكانه، مصاريف النقل على حسابى، وأى طلبات أنا مستعد أنفذها..

قال صابر:

– جميل، وهو المطلوب..

ثم استطرد صلاح:

– بعد يوم، يومين، ننتقل لشقة أجرتها فى مدينة نصر..

قال كامل:

– وشغلها يا صلاح..

– اتفقنا تستقيل..

نظر كامل إلى مها، هزت رأسها بالموافقة.. قال صابر:

– ما دمت موافقة، ألف مبروك..

قال صلاح:

- إن شاء الله نخرج من هنا إلى بيت الأستاذ سلامه، ونخلص الموضوع..

- خير البرِّ عاجله، هيا بنا..

اتجه كامل إلى الجرسون، دفع الحساب،لحق بهم عند الباب، دعاهم إلى سيارته..

استقبلتهم أم مها بترحاب وود فوجئت بصلاح خلف كامل وصابر، ذرفت عيناها الدموع وهى تحتضنه وتقبله، بكى صلاح هو الآخر، أدخلتهم حجرة الكنب، نادت ابنها وبعثت به فى طلب أبيه..

وقفت بباب الحجرة تنظر إلى صلاح قائلة:

ـ هانت عليك العشرة ياصلاح..

قبل أن يرد صلاح قال كامل:

ـ أرجوك يا أم مها، لا عتاب، لا نقاش، لا عودة للوراء..

تناهى إلى سمعهم صوت طرقعة شبشب الأستاذ سلامة، دخل مرحبا، ثم توقف فجأة أنزل ماهر من فوق كتفه، جرى ماهر ألى مها:

ـ ماما.. ماما..

خرج الأستاذ سلامة وخلفه زوجته إلى الصالة، دفعت مها بماهر إلى صلاح:

ـ بابا عاد من السفر ياماهر..

تراجع ماهر ولبد فى الكنبة بجوار أمه، يحدق فى صلاح مشدوها، خائفا، مذعورا، قالت مها بعد أن همست فى أذنه:

ـ قل لبابا أنا كبرت..

تركت مكانها، أخذت ماهر بين ذراعيها، جلست إلى جوار صلاح، اقترب صلاح بوجهه ليقبله، أبعد ماهر وجهه، ترك أمه وخرج وراء جدّه..

عاد الأستاذ سلامة بينما وقفت أم مها بقرب الباب تحمل ماهر على كتفها الأيسر..

جلس الأستاذ سلامة:

ـ أهلا وسهلا..

عرض كامل ماااتفق عليه بين مها وصلاح، يساعده صابر أحيانا، وعندما انتهى قال الأستاذ سلامة لابنته:

ـ وانت وافقت..

قالت مها والدموع تفر من عينيها:

ـ مافعله ماهر يقطع فى قلبى كالسكاكين.. ابنى نسى أحضان أبيه ياأبى..

قال الأستاذ سلامة محذرا:

ـ وإذا اشتكيت منه مرة ثانية..

قال صابر محاولا تهدئة التوتر الذى لاحظه على الأستاذ سلامة:

ـ أوعدك ياأستاذ سلامة أنا.. إن شاء الله كل خير..

قال الأستاذ سلامة فى ثقة مستغلا نقطة الضعف التى أدركها وتصرف على أساسها من قبل:

ـ من حقى أطلب مصاريفها ومصاريف ابنها..

نظر كـامل إلى الأسـتـاذ سـلامـة نظرة صـاعـدة هابطة، هو لم يتـغـير، هـو نفسـه الذى كان يخـرج بالبـيجامـا والشـبـشب ليتناول عشـاءه عند الكبـابجى ويعود فـيتجـشـأ أمـام أولاده، ويصف الأكلة التى تناولها بفخر، تضطر أم مها إلى إرسال ابنها لشراء الكباب له ولإخوته.. هـو هو يوم اشـترى الكبـاب وجلس يأكل دون أن يقـول له ومعـه صـابر تفـضـلا شـاركانى الطعـام، والتهم مـاجاء به، وعنـدمـا خطفت القطة قطعة لحم، قام وراءها مهددا متوعدا ولم يهدأ له بال إلا بعد خروجها من الشقة وأغلق الباب وراءها، هو نفسه كان يضع اللب والسودانى فى جيبى بيجامته ويجلس بين الجميع يقزقز ويقـشـر السـودانى ويأكل دون أن يقـدم لولد من أولاده بعـضـه، هو نفسه الذى تنازل عن معارضته فى زواج صلاح من مها أمام ذكر من البط المحمر، وافق وهو يلتهمه..

تنبه كامل وصلاح يمد يده للأستاذ سلامة بالمال قائلا:

ـ ألف جنيه، عدها..

دس الأستاذ سلامة المبلغ فى جيبه، وشعور بالسعادة يبدو على وجـهـه، فـرح لأنه اسـتـرد مـاله الذى سلبـه منه صـلاح فـى لعبـة الكونكان فى عـدة أشـهـر، قـال فى نفـسـه وهو ينظر إلى صـلاح «أخذتها منى قروشا، وأخذتها منك جنيهات، سلامة لايضحك عليه أحد..»

ـ غـدا إن شـاء الله نعـيـد للشـقـة أثاثهـا، مـصـاريف النقل على حسابك..

قال صلاح:

ـ سأكون موجودا وأدفع لهم..

قال كامل:

ـ يامها، أرى من الأفضل أن تأخذى ماهر وتخرجى، اذهبى إلى أى مكان، لابد أن يشعر ماهر بوجود أبيه معه..

ـ ليس عندى مانع..

ونظرت إلى صلاح، هز رأسه موافقا..

استأذن كامل وتبعه صابر، خرجا إلى الطريق، تشمم كامل الهواء وملأ رئتيه، قال صابر فى غضب واستياء:

ـ كان الله فى عونك ياأم مها، هل يوجد فى الدنيا أب كهذا؟

صافح كامل صابرا، وافترقا كل إلى بيته..

(١٦)

عندما ضاقت بها الدنيا، سعت تبحث عن عمل يساعدها، يسد رمق أولادها الستة، تغلق عينياها لتطرد حبات الدموع النابتة، ماتصورت يوما أن يدير لها الزمان ظهره، يقسو عليها، نعمت برغد العيش، تزوجت وأنجبت، امتلكت بيتا، فرطت فى المصاغ الذى استولت عليه يوم وفاة أمها، ورثت نقودا وفيرة، منه لله، عادل، تزوجته فرارا من العنوسة، وفرارا من عزوف كل الشباب عنها بسبب مافعلته أمها سعاد، تناولت حياتها القصص والحكايات، تركها أبوها وترك لها أحمد لترعاه، انتقل إلى بلدة أخرى مع زوجة أخرى، بدد عادل كل ماورثته على المخدرات، كما بدد ميراث أخيها ومازال فى مقتبل حياته، هل تنقم عليه؟ وماذنب أولادها منه، وكيف؟ وهو طريح الفراش منذ تمرمطت كرامته فى الأرض، وركبه العار، دفع ثمن غروره، حقده، شروره التى آذت كل الناس، وهل

تتقم على مـريض، أذله المرض؟ يرقـد فى الفـراش كطفل صـغـيـر، لايستطيع أن يتحرك، أو يتكلم، أو يتـألم، تقوم على خدمته تطعمه وتسقيه، تغير له ملابسه، تنقله من السرير إلى الكنبة، الحمام، إلى جوار النافذة، تحمل همه..

وكأن ذلك لم يكن كافيا لتعذيبهـا، وإضافة أعباء على أعبائها، وهم فوق همومها، ابتلاها أحمد بزوجته بعد جريمته التى اقترفها فى حق البنت اليتيمة عليّة، اضطر للزواج منها فى صمت ودون أن يدخل إلى قلبها المحزون الفـرحة، مصـمصت شـفتيهـا، الفـرحة، مـاطعـمهـا؟ مـاشكلهـا؟ مـالونها؟ حـزنت يوم مـوت أمهـا، حـزنت يوم مـرض زوجهـا، حـزنت يوم تزوج أخوهـا، تحزن كل يـوم، ازداد حزنها يوم طلب للجيش، قال باكيا:

- سامحينى ياأختى، لم أسمع نصيحتك، ضيعت أموالى، أسأت سلوكى، سامحينى، عليّة زوجتى أمانة حتى أعود، وربنا يسامحنى..

- عليّة فى عينى، وربنا يكمل لك عقلك.. مع السلامة ياأخويا..

بحـثت عن عـمل، سـألت كل مـعـارفـهـا، هـداها أحـدهـم إلى مستشفى تطلب ممرضات، هرولت، استعطفت، بكت، حصلت على العمل..

تعبت حتى استقرت حياتهـا، تقوم عليّة بخدمة عادل فى غيابها، تعلم الأولاد خدمة أنفسهم بأنفسهم، تعود محملة بما تستحوذ عليه من مطبخ المستشفى لإطعامهم، وتدخر مايصلها من هبات وبقشش من زوّار المرضى، ومن المرضى أنفسهم تقتات بالصمت حتى يشبع

كل من فى البيت، ثم تأكل البقية، غالبا لايتبقى إلا الخبز وحده، تغمسه فى الملح وتحمد ربها، مرة تلو مرة يغلبها البكاء فى أى وقت وأى مكان، فى المستشفى، فى الشارع، فى البيت، تبكى ولاتسطيع الكف إلا بعدما تشعر ببعض الراحة..

تلتقى بالصدفة بمن غدر بحبها، صدفة ماتوقعتها، كانت تقوم بتنظيف غرفة الاستقبال، على أمل أن يعلّمها أىٌّ من الأطباء ضرب الحقن، فكرت أنها لو تعلمتها يمكنها زيادة دخلها فترة المساء التى تقضيها فى البيت، تدخل الحالات المستعجلة، تعرض على الطبيب، يكتب العلاج لبعضها وتنصرف، ويحول بعضها إلى الأقسام الداخلية، دخلت امرأة تدفع ببطنها أمامها، حالة ولادة، فوجئت بسعيد - حبيبها القديم - يدخل مسرعا إلى الطبيب:

- زوجتى يادكتور فى غاية التعب..

نظر الطبيب إليها، أمرها بالصعود فوق ترابيزة الكشف، طلب من سعيد الخروج، لمحها منزوية فى ركن الحجرة، ففرفاه كمن ألقم حجرا، قال بصوت مبحوح:

- بطة..

- أخرج من فضلك..

جاءه أمر الطبيب..

خرج، انتظر أن تلحق به، استند إلى حائط الحجرة من الخارج، عاقدا ذراعيه فوق صدره، ينتابه القلق فى ترقبه، يكاد يشك فى

عينيه، بطة تعمل خادمة فى المستشفى، لا، لو كانت هى للحقت به، وتكلمت معه..

خرجت زوجته مستندة على بطة، تتأوه، تتألم، قالت بطة:

- حولها إلى كشك الولادة ياسعيد..

قطعت الشك باليقين، بقى أن يتكلم معها، يعرف قصتها، منذ ترك الحى، عمل فى الجمعية الاستهلاكية فى حى آخر، استأجر حجرة عاش فيها، التقى بها، ناوشته، ناغشته، شغلته، أحبها، عرض عليها الزواج، وافقت، التقى بأهلها وعقد عليها، زفت إليه، عاشت معه فى حجرته راضية قانعة:

- شدى حيلك ياسهام..

- أول ولادة أتعب فيها ياسعيد..

يوضح سعيد لبطة:

- عندنا أربعة، ثلاثة صبيان وبنت..

- عندى ستة، ثلاث بنات وثلاثة صبيان..

يضحك سعيد:

- الحال من بعضه..

يقف سعيد بالخارج، تدخلان الكشك، تقدم بطة «الروشتة» للحكيمة، تترك سهام وتخرج، يقترب سعيد منها:

- ماأخبارك يابطة؟

- عن إذنك، لازم أرجع لشغلى..

- خمس دقائق، أعرف أحوالك..

- أحوالى لاتهمك..

- تهمنى طبعا، على الأقل أولاد حى واحد، جيران، أهل..

- فى مناسبة أخرى ياسعيد..

- متى ينتهى عملك؟

- قبل آذان العصر..

- أنا فى انتظارك..

.. تركته وانصرفت، تقارن حياتها بحياته، يعيش فى حجرة واحدة، مع زوجته وأولاده الأربعة، هل يحس بالسعادة؟، هل يكسب مايكفيهم؟، لاتظن!!

اقترب سعيد من شباك حجرة الاستقبال، يراقبها وهى تعمل، استغل فرصة خروج الطبيب وإتجاهه إلى مبنى المكاتب، بادرها بقوله:

- أعرف أنك تزوجت بعادل المدرس..

- للآن على ذمته..

- لم.....

قاطعته بسرعة:

- معاشه لايكفينا..

فى دهشة قال:

- معاشه.. هل وصل الستين؟

- مرض مرضا لاعلاج له، أخرجوه من العمل..

- كان الله فى عونك..

- وشغلك ياسعيد..

- فى جمعية استهلاكية.. قريبة من المستشفى، تحت أمرك لو أردت أى شئ، لحم، فراخ مجمدة، سكر، أرز، بقالة، أى شئ أنا تحت أمرك..

- أوصف لى مكانه..

أخذ يصف لها الطريق إلى الجمعية الاستهلاكية، يعطيها التفاصيل، قالت:

- أعرفه، بجواره مدرسة....

- بالضبط.. أى وقت تمرين قدامه ارمى السلام..

تطلع إلى كشك الولادة وسألها:

- ممكن تطلّى على سهام..

ركنت المقشة بجوار الحائط، غادرت الحجرة وجذبت الباب وراءها، توجهت إلى كشك الولادة وسعيد يتبعها، دخلته، يتمشى سعيد فى قلق أمام بابه، يروح ويجيئ، بعد قليل خرجت بطة:

ـ قربت تولد، معك ملابس للمولود..

ـ حالا أحضرها..

وانصرف مسرعا، اخترق الممر إلى البوابة، استأذن البواب، أخبره بعودته ثانية بعد إحضار ملابس للمولود، هز البواب رأسه.. اقتربت بطة منه قائلة:

ـ أما يرجع دخله ياعم حسنين..

ـ حاضر..

وعادت إلى حجرة الاستقبال تكمل تنظيفها..

ارتبطت بطة بسعيد من جديد، تمر عليه فى الصباح تلقى إليه التحية، تمر عليه قرب العصر تأخذ بعض لوازم البيت مما هو موجود بالجمعية، يسألها عن أحوالها، تسأله عن سهام وطفلته الجديدة، تتسرب الهموم من نفسها على مهل، تعود بهدوء البسمة إلى شفتيها، تزين وجهها، تشغل بعض الذكريات الحلوة بعضا من وقتها، اعتادت رؤيته صباح مساء، تأخذ طلباتها دائما بالزيادة، قدمها لزملائه على أنها أخته، حق الزمالة يقتضى إكرامها، سعدت بطة بقدر ماتستفيد..

طلب أن يراها، ترك لها تحديد الموعد، نظرت إليه، تأملته، هل ترفض؟ ترددت فى الإجابة، تركته وانصرفت، لا وقت لديها للحب، وأىّ حب، لا .. لا، لاتظنه يريد إعادة الماضى، ولم لا؟، أبوها تزوج سبع نساء قبل أمها، وتزوج التاسعة بعد موتها؟ ماذا يمنع سعيد؟

وهى، هل تفكر فيه؟ هل لديها مشاعر نحوه؟ هل تظنه يغزو أحلامها؟ وأين هى الأحلام، لاترى فى نومها إلا الكوابيس.. يقول عقلها ارفضى، ابتعدى، تفرض عليها ظروف حياتها مجاراته لتقف على نواياه، تقول أحاسيسها، قابليه مرة واحدة، يقول عقلها مرة تجر وراءها مرة، والنتيجة.. امتلكت الحيرة زمامها، تبرمت، تضايقت، هتفت فى صمتها، أقابله، «أقطع عرق وأسيَّح دم»..

***

بدأ سعيد قوله:

- سامحينى يابطة أنا خنتك وخنت وعدى ونفسى..

- عمر الماضى مايرجع ياسعيد..

- أنا طالب السماح لاأكثر..

- أنت تعرف، قلبى أبيض ياسعيد.. وضح لى غرضك من المقابلة..

- بصراحة، غرضى أساعدك..

قالت وهى تهم بالانصراف:

- متشكرة على شعورك..

- اكمل كلامى وامشى..

- أى كلام ياسعيد، قل وخلصنى..

- نتعاون مع بعض، يعنى أنفعك وتنفعينى..

ـ فهمنى.. تنفعنى وأنفعك.. افهم..

تلفت حوله، دفعها للسير، مشى بجوارها، قال وهو ينظر إلى الأرض:

ـ يعنى ممكن أناولك صندوق صابون، تدفعى ثمنه، تعرضيه للبيع بالزيادة، والزيادة نقسمها بينى وبينك..

رفع عينيه إلى عينيها:

ـ أى سلعة فيها أزمة ممكن نكسب من وراها.. فهمتى..

ـ أخاف ياسعيد..

ـ إياك تعتبريها سرقة، أنت تشترى، كل مافى الأمر الزبون العادى يشترى أربع قطع صابون، أنت تشترى الصندوق وكله فى النهاية مبيعات الجمعية..

ـ أنا عندى أولاد ياسعيد..

ـ وأنا عندى أولاد.. وأى ضرر يضرنى قبل مايضرك..

ـ والله أفكر..

ـ أنا قلت عرضى، تقبلى أهلا وسهلا، ترفضى أهلا وسهلا، أنت حرة فى قرارك..

ـ أرد عليك بعد يومين..

ـ وأنا فى انتظارك..

قلق، كلك قلق ياسعيد، زمان عرفتك وأحببتك ربيت عندى القلق، راجع لى بالقلق، هى فرصة، فرصة اكسب ويكسب، لا فيها غش ولا سرقة، اشترى وأدفع، وأبيع بسعرى أنا، كل الناس فى أزمة، أزمات، لحم، سكر، زيت، صابون، أرز، كل شئ فيه أزمة.. أوفر على الناس تعب الوقوف فى الطوابير، زيادة قرش أو قرشين أرحم من البهدلة، يمكن فى يوم استغنى عن شغلى بالمستشفى، ارجع معززة مكرمة، تاجرة، شغلتى تاجرة..

دون تردد وتضييع وقت أعلنته بموافقتها، بدأت العمل معه، فرحت بالمكسب، يوما بعد يوم تزداد مشترواتها من الجمعية، لم تعد وحدها تستطيع حمل ماتشترته، بدأت تصحب ابنتها الكبرى، تحمل نصف الكمية، زاد الطلب، تصحب ابنتها الكبرى وعليّة، بدأ الناس يتوافدون على بيتها، يعلنون طلباتهم، بدأت تنتشر، يأتيها الزبائن من كل الدروب، الحوارى والأزقة، تأتى لهم بالشحيح والنادر، استراح الناس، لاتهمهم الزيادة، يهمهم وجود طلباتهم فى متناول أيديهم..

تدخر بطة كل المكسب، توسع به رأسمالها، فاض المكسب وزاد، تشترى بالزيادة أساور ذهبية، تنفع وقت أزمة، بنت الدور الثالث فوق شقتها، أجَّرتها، حصلت على مبلغ كبير كخلو، مثلما يفعل الناس فعلت، بدأت تبنى الدور الرابع، اشتهرت، فاقت شهرتها شهرة أمها، لكن بأسلوب عمل لاغير.. سعدت وفرحت بالتفاف

الناس حولها، تفتخر بأن الأستاذ كارم يطلب منها بعض احتياجاته، المعلم عزوز، سيد برهوم نفسه، المعلم أبو سريع، عبد الله شفيق وإخوته، أبو كامل، أم سماح، بيت المرحوم حسنى، بيت المرحوم عزت، بيت.... بيت....، وفى كل بيت تجد الترحيب والمودة، وفى كل دار لابد وأن تأخذ واجبها شايا أو قهوة أو كوكاكولا، وفى كل فرح تكون على رأس المدعوين،، اتسعت تجارتها، اقتحمت المتجر الشعبى، قدمت الزيت والصابون والسكر، اللحم، وأخذت الأقمشة، التيل، الدمور البفتة، الكستور، تيل نادية للمدارس، قماش التنجيد، مفارش العرائس، لم يعد لديها وقت للهم، للحزن، للأسى، نجحت ولم تعر لقب بطة «الدلالة» أى اهتمام.. يهمها فى المقام الأول أن تعيش مستورة بين الناس..

(١٧)

بدأ يتسلل، كشئ هلامى لاحجم، لا وزن، لا صفة، كالهواء، ضوء أول النهار، تسلل الظلمة عند الليل، هو نفسه لايعرف كيف تسللت إلى مشاعره، فتحت قلبه المغلق بعد حبه لنوال، يراها فى الصباح، يلقى أو يتلقى تحية الصباح، بعد الظهر أو فى المساء، تسكن البيت المجاور، يتلاصق مسقطا النور، يواجه شباك الصالة شباك صالتها، تتقابل بفاصل نصف متر الشرفتان، يعود من العمل - أحيانا - فيجدها فى ضيافة أمه، يحييها، يدخل حجرته، يغير ملابسه، فى البداية كانت تستأذن وتتصرف فى وجل واضطراب، ثم بعد فترة قصيرة، تتلكأ بعض الوقت واقفة قرب باب الشقة، ثم بدأت تهرول على الدرج عندما تسمع صوته، أو دبيب، قدميه فى مدخل البيت، عندما أوشكت على السقوط على الدرج تلقاها صابر بين ذراعيه، قال منتفضا :

- على مهلك ياأم على..

أفلتت من بين ذراعيه وهرولت، رآها من الشبَّاك تستند على باب الشقة المغلق ويدها اليمنى على صدرها فوق القلب..

عادت صورتها بين ذراعيه تخايله، هل فعلا كادت تسقط على الدرج؟ أم أرادت أن.. ثم صورتها ويدها فوق قلبها، ولم تجفل؟..

بعدها، عاد وأغلق باب الشقة، استند إليه وقال لها:

- لست شيطانا..

قالت بصوت رقيق مفعم بالحنو:

- لاأفهم..

- يقولون إذا جاءت الشياطين ذهبت الملائكة..

ضحكت بصوت تغلغل فى كيانه، ارتعشت ركبتاه، تصبب العرق على جبينه، قالت:

- لست شيطانا..

عقب عليها قائلا:

- ولا ملاكا..

امتدت جلستها هذه المرة، أبدل ملابسه، جلس إلى جوار أمه، وضعت فتحية أمامه الطبلية، الطعام، دعاها لمشاركته غدائه:

- بالهناء والشفاء..

بعدها، توطدت أواصر المحبة، تأتى بصحبة زوجها، يجلس مع عم حفنى وصابر، وتجلس مع فتحية ورومية وأمهما، تمتد السهرات، يخرج مكنون النفوس، تقاربت الأمانى والتطلعات والأحلام..

تمتد خطوط الخصوصية وسط الشمل المجتمع، تعلم على يديها لغة الحب، تتلاعب شفتاها:

ـ أحبك..

تتلاعب شفتاه مثلها، تغمز بعينها اليمنى:

ـ تعالى ورائى..

تقف بالشرفة متعللة بالنداء على ابنها على، يلحق بها، تهمس:

ـ لم أنم ليلة أمس إلا بعد الفجر..

ـ وأنا..

يفرض النوم سلطانه على أفراد الأسرتين ماعداهما، تقف بشباك الصالة، يقف أمامها، يتهامسان، يعد ذراعه واقفا على أطراف أصابع قدميه، تلمس يده أناملها، يداعبها، يرسل قبلته الطائرة، ترسل قبلتها، تتلاقى القبلتان، يقص، تقص، يهمس، تهمس..

يقطع زوجها الخلوة بصوته الغارق فى النعاس:

ـ ياأم على..

ترفع القلّة، ثم تضعها بقوة محدثة صوتا:

- أتريد القلّة..

قد تحملها إليه، وربما لايطلب شيئا، تبعث إلى صابر قبلة الوداع وتأوى إلى فراشها.. يدور صابر ويلف داخل الشقة، الشرفة، المطبخ، يهده التعب، يذهب إلى فراشه..

فوجئ ذات يوم عند عودته من العمل بأمه تقول له:

- وجدت لك عروسة أجمل من القمر..

- تعرفين رأيى ياأم صابر..

- لو رأيتها تغير رأيك..

- من هى؟

- علا أخت أم على..

ثم استطردت:

- جاءت تقضى أجازة المدارس عند أختها.. بنت ولا كل البنات..

قالت فتحية وهى تضع الطبلية:

- أتمنى ياصابر تكون من نصيبك..

عبر الشباكين يلقى بنظراته إلى شقة أم على، ثم يعود إلى تناول طعامه، مع أقل حركة تصل أذنيه يلقى نظراته، تكرر سماعه للحركات، قام وأطل، وجد ابنها يلعب..

خمنت أمه أنه يتطلع لرؤيتها قالت:

ـ خرجت مع أختها إلى السوق..

أنهى طعامه بسرعة، غسل فمه ويديه، سحب كرسيا، توجه إلى الشرفة، جلس يترقب عودتهما ليرى العروس التى حدثته أمه عنها..

أحضرت رومية كوب الشاى، تناوله ووضعه على إفريز الشرفة، يتطلع إلى آخر الشارع من الناحيتين، يشير له أمير، لايرد تحيته، أطلق أمير صفيره المميز، تطلع إليه صابر وأشار محييا، رفع كوب الشاى، فهم أمير، أشار بأنه قادم..

دخل صابر إلى الصالة، حمل كرسيا آخر وقال لرومية:

ـ اعدى الشاى لأمير..

أخذت رومية كوب أمها:

ـ اعمل لك غيره..

وضعته على إفريز الشرفة، إلى جوار الكرسى الخالى، عادت لترد على طرقاته على الباب:

ـ تفضل ياأستاذ أمير..

ألقى أمير التحية، اخترق حجرة الكنب، لقيه صابر:

ـ أهلا ياأمير..

ـ أهلا ياصابر..

قال أمير وهو يقدم سيجارة لصابر:

ـ سمعت الخبر..

ـ أى خبر؟

ـ طرد الخبراء الروس..

ـ صحيح ياأمير، متى؟

ـ اليوم.. الناس مندهشة، فرحة..

ـ يعنى هذا أن الشائعة صحيحة..

ـ فعلا.. عرفنا بمنعهم أحد القادة من دخول قاعدة جوية..

قال صابر وعيناه زائغتان عبر الشارع:

ـ والله برافو.. قرار فى محله..

ـ عرفنا الخبر قبل إذاعته، سمعنا تهليل وحدة الإشارة التى نحرسها، سألنا، قالوه لنا

ثم أردف وهو يتناول الشاى مع أنفاس السيجارة:

ـ والله ياصابر، أنا أعتبره إلهام من ربنا، أنت ربما لاتعرفهم، أنا قرأت عن حكمهم الأسودفى بلادهم أو فى البلاد التى احتلوها، يكفى أن تعرف محاربتهم للأديان، أغلقوا الكنائس والمساجد، مناهج التعليم تخلو من مادة الدين..

قال صابر:

ـ سمعت من يقول بمبدأ يعتنقونه أن الدين أفيون الشعوب.. لهذا يحاربون الأديان..

يرفع صابر قامته قليلا، يجوب الشارع بعينيه، يعود للجلوس:

ـ تنتظر أحدا..

ـ أتظننا سنحارب..

قال أمير بعد لحظة:

ـ لابد.. سمعت عن وصول أحدث الأجهزة لسلاح الإشارة، أتعرف من أين؟

هز صابر رأسه بالنفى، أردف أمير:

ـ تتخيل، من أوروبا..

ـ يعنى فعلا تنويع مصادر السلاح حقيقة لا كلام.. وهذا معناه أننا فى حاجة لوقت طويل للتسليح والتدريب..

قال أمير متأملا سيجارته:

ـ والله ياصابر لو رتبنا الأمور تحس أن فيه تحركا، يعنى تنويع مصادر السلاح، طرد الخبراء تجنيد كل المؤهلات بالجيش، التدريب العنيف، محاضرات الدين فى المعسكرات، تحس بخطوات جادة.. ترى نذر حرب..

دخل عم حفنى، جلس عند الشرفة على حافة الكنبة:

ـ مرحبا ياأمير..

- تعيش ياعم حفنى، كيف أحوالك..

وضحك أمير، كلما قال له كيف يضحك، لأنه يخاطبه بها كلفته الصعيدية تماما، قال عم حفنى:

- الحمد لله..

- خلاص ياعم حفنى، تحررنا من الروس..

- صحيح ياأمير، وكيف؟

- خطاب شكر ومع ألف سلامة..

ضرب عم حفنى الأرض بكعب عصاته وقال:

- ضربة معلم، أنا من زمان قلت الولد نابه أزرق، يشتغل ومايبيع كلام.. والله ياشيخ ربنا معه..

وقف صابر، أرسل عينيه إلى أم على، ينظر إلى أختها، تنتابه الدهشة، يقول لأمير وهو يتراجع للوراء:

- أنظر ياأمير، أم على ومعها أختها..

أطل أمير بنظرة عابرة، ثم عاد لمجلسه متسائلا:

- مالها أختها..؟

- مارأيك فيها؟

- جميلة.. أم علىّ شكلا وموضوعا قبل الزواج والولادة والرضاع..

قال عم حفنى:

- يعنى تنفع عروسه لصابر..

قال أمير ضاحكا:

- تنفع وتنفع ياعم حفنى، لكن المهر غالى..

تنهد صابر وقال:

- كلام لم يحن بعد أوانه.. الموضوع يحتاج تفكير، تفكير طويل..

قال عم حفنى مغتاظا:

- ياابنى ربنا يهديك، أنا تزوجت أمك وعمرى ١٨ سنة، عمرها كان ١٤ كانت صغيرة وأنت قرِّب توصل الـ ٣٠ سنة.. حرام عليك..

- ياوالدى، حتى ٣٥ يكون أفضل، سن الرجولة الكاملة، البنت تحب الشاب أكبر منها، تحس معه بالأمان..

شوَّح عم حفنى بذراعه قائلا:

- بلا كلام فارغ.. المفروض الواحد منكم يتزوج بدرى حتى يقدر يربى أولاده، يؤدى رسالته قبل مايعجز..

يقول صابر:

- أفكارك، أفكار زمان المتخلفة.. الوضع اختلف ياأبو صابر..

- أنتم والله المتخلفين، تمتلئ ادمغتكم بأفكار هايفه، الزواج على كبـر، بين الخلفـة والخلفـة على الأقل ٣ أو ٤ سنين، يعنى الواحد فيكم ممكن يطلع معاش وعنده طفل..

قال صابر مهدئا من ثائرة أبيه:

- إن شاء الله، بإذن الله بعد النصر أتزوج..

- موت ياحمار....

قال عم حفنى قولته وغادر الحجرة، وهو فى غضب:

- إن شاء الله ماتزوج عمره، أنا شاغل نفسى بواحد مايستاهل أى شئ..

قالت أم صابر لزوجها:

- يارجل اصبر، اصبر أما يفكر..

- حاضر.. أنا صابر ياأم صابر..

قال أمير:

- أبوك معه حق.. البنت حلوة، فكر بسرعة وتقدم لها..

قال صابر وخيال أم على يتراقص أمام عينيه:

- أحتاج بعض الوقت لأفكر..

استقرت عيناه على أم على وأختها وهما تدخلان الشرفة، تقفان، تتهامسان، نسى أمير، ونسى نفسه، التفت أمير للخلف، لمحمهما، قام مستأذنا، ودعه صابر حتى خرج ثم عاد، على الفور قدمت إليه أم على أختها، وبدأ حديث يدور بينه وبينهما..

اقتربت روحية من صابر وقالت:

ـ أمك تبكى ياصابر..

دخل صابر مسرعا، استمع إلى صوت الراديو:

«لو مت ياأمى ماتبكيش.. راح أموت علشان بلدى تعيش..»

حاول أخذ الراديو الصغير من أمه، أبعدت يده، احتضنت الراديو فى صدرها.. أشارت بيدها لينصرف عنها..

عاد لينقل مارآه إلى أم على وأختها..

قالت بعد أن همست فى أذن أختها:

ـ علا ستنسيها همّها.. حضرى الشاى ياروميه..

ـ حالا ياأم على..

جلس صابر على الكرسى، يعد نفسه للقاء علا، يرتب أفكاره، كيف يبدأ؟ وإلى أى مدى يتشعب الحديث؟ وهل تروق له؟

(١٨)

وقف صابر فى الشرفة، يتابع الكهربائى وهو يعلق حبال النور على واجهة البيت، أشار عليه صابر بأن يغطى الواجهة بأربعة مثلثات، داخل بعضها، كما طلب منه وضع أربعة حبال تصل مابين بيته والبيت المقابل، وقفت بسبس هى الأخرى تتابع المشهد، تنتظر انتهاء الكهربائى لتفتح له شقتها لربط الحبال بشرفتها، تذكر صابر حسن فخرى، قبل أن يلوم نفسه على عدم قيامه بدعوته، اقتنع بأنه لن يحضر، لقد ابتعد تماما عن الحى بعد زواجه لأنه يخشى سلاطة لسان زوجة عمه، يعرف صابر جملة أوصافها له، تقولها كلما جاءت سيرته مع أى من جيرانها، التقى بكامل ودعاه ودعا صلاحا، فرح كامل حينما علم بأن عريس روميه هو فاروق ابن خالتها، التقى به مرات عديدة فى بيت صابر، أو فى البلدة حيث زارها مرتين بصحبة صابر.. كما أعلن صلاح فرحته..

يتوقع صابر بين لحظة وأخرى وصول فاروق وأسرته، ومدعويه من البلدة، انتهى الكهربائى رفع عقيرته متسائلا:

ـ أى خدمة أخرى ياأستاذ صابر؟

ـ أوصلت التيار..

ـ بعد المغرب..

ـ شكرا، مر على المعلم يرسل الكراسى..

لمح الكهربائى حمار العربة «الكارو» يميل داخل الشارع، أشار بيده قائلا:

ـ الكراسى وصلت ياأستاذ..

غادر صابر الشرفة، هبط السلم، وقف أمام باب البيت، أمر صبى الفراش بوضع الكراسى كما هى مربوطة بجوار البيت، قال الصبى:

ـ عشر دست ياأستاذ..

نفحه صابر بقشيشه وانصرف..

تمشى صابر ناحية أول الشارع، وقف يدخن سيجارته فى قلق لتأخر فاروق، نظر ناحية البيت وجد خاله محمد وقد نزل من الشقة، سحب كرسيا من الكراسى جلس عليه، تطلع إلى شرفة أمير، ثم ابتسم وكامل وسماح يقتربان منه:

ـ أهلا ياسماح، أهلا ياكامل...

ـ ربنا يتمم بخير..

قالتها سماح وهو يصافحها، قال كامل لسماح:

ـ اذهبى إلى البيت..

انصرفت سماح وكامل يقول لصابر:

ـ فيما قلقك.. ألم يأت عمر وعلاء؟

ـ لايعرفان..

قال كامل فى دهشة:

ـ لايعرفان، فيم الاستعجال..

قال صابر فى استياء:

ـ اضطرنا فاروق، قال إذا لم أعقد عليها خلال اسبوعين فلن اعقد عليها أبدا.. وافقه أبى وأمى..

ـ على خير إن شاء الله..

ـ يقلقنى تأخره وأسرته.. أمامنا شراء الشبكة..

ـ لاتقلق، طريق السفر طويل..

ثم أمسك بيده وقال:

ـ تعالى نجلس مع خالك محمد..

قال صابر وهو يمشى معه:

ـ خمنت أنك نسيته..

ـ ذاكرتى قوية والحمد لله..

قام خال صابر مرحبا بكامل، تبادلا الأحضان والقبلات، قال كامل:

ـ ياأهلا ياحاج محمد، شرفتنا..

ـ الله يعز مقدارك، والله متشوق لرؤيتك، اسأل صابر، سألت عليك بمجرد وصولى.. ألف مبروك الزواج..

ـ عقبال أولادك..

ـ نفسى نفرح بصابر..

ـ البركة فيك، فتش له عن عروس فى البلد..

ـ يطلب وأنا مستعد..

ثم وجه الحديث إلى صابر:

ـ مارأيك ياابن أختى.. تعال ومستعد أزوَّرك كل بيوت البلد، تختار من تعجبك..

قال صابر:

ـ ياخال، أما نخلص من موضوع فاروق..

دخلت سيارتان الشارع، قاموا لاستقبال فاروق وأسرته ومن معهم، احتضن كامل فاروق مهنئا، واحتضنه صابر، وخاله محمد، تبادل الجميع المصافحة والتهانى، صعدت النسوة والبنات إلى الشقة، رص بعض الصبية الكراسى، جلس الرجال يتبادلون التحايا

والسلامات، قال أبو فاروق معتذرا:

- تأخرنا ياحاج محمد غصب عنا، توقفنا فى الطريق أكثر من ساعة..

قال الحاج محمد:

- حادثة إياك..

- لأ.. عربات ودبابات وجنود مرت بنا.. طلبت منا الشرطة العسكرية الوقوف جانبا حتى يمروا..

نزل فاروق من الشقة، قال لخاله:

- استعد ياخال، تأتى معنا لشراء الشبكة..

- لا لزوم لوجودى معكم..

قال أبو فاروق:

- أنت بدلا منى ياحاج، أنا فى الحقيقة مرهق..

وأدخل يده فى جيب الصديرى تحت الجلباب وأخرجها بلفة قدمها للحاج محمد:

- خسمسمائة جنيه معك، اشتر ماتريده عروستنا..

خرجت من باب البيت فتحية وأمها وأم فاروق وأم على، صحبهن فاروق إلى إحدى السيارتين وقال:

- تعالى معنا يأستاذ كامل، هيا ياخال..

اعتذر كامل لكن الحاج محمد أمسك بيده وقاده إلى السيارة الأخرى، جلس كامل وصابر فى المقدمة، وجلس الحاج محمد وفاروق وعروسه فى المقعد الخلفى ، قال فاروق:

ـ نشترى من أى محل قريب..

ـ يوجدصائغ فى الميدان..

قالها صابر واستمع لخاله يقول:

ـ خير وبركة..

ثم إلى ابنة أخته:

ـ اختارى مايعجبك يانجوى بكل حريتك..

قال فاروق مبتسما:

ـ اسمها رومية ياخال..

عقب كامل قائلا:

ـ نناديها رومية من زمن..

ضحك الحاج محمد وقال:

ـ ياما عندكم من بدع ياولاد مصر.. رومية رومية، ولاأحد يزعل..

***

جلس الجميع يتبادلون الأحاديث، ينتظرون حضور المأذون، همس صلاح إمام فى أذن كامل قائلا:

- فرق كبير بين الفقر والغنى..

- ماقصدك؟

سأل كامل، ولم يدرك مادار فى خلد صلاح، قال صلاح:

- فرق كبير بين المخبر، مااسمه؟

- عبد المعطى..

- فرق كبير بين عبد المعطى المخبر وعم حفنى..

قال كامل:

- المجاملات فى زماننا إما إتاوة وإما رشوة.. إتاوة إذا كانت عن خدمات سابقة، ورشوة لتوقع خدمات مقبلة..

قال صلاح:

- لاأطلب منك فتوى، إنما أثبت أن المال هو كل شئ فى الحياة.. معك المّ يبعد عنك الغم..

قال كامل مندهشا:

- فلسفتك الجديدة ياصلاح..

- الواقع ياصاحبى.. بالمال رجعت لى مها، استقالت، بالمال تكاد تعبدنى، مجرد ماانظر ناحيتها تقف لى وكأنها تقول لى «شبيك لبيك....»

هز كامل رأسه فى حسرة، داخله الغم قال حزينا:

ـ آه..

اقترب صابر، قال ضاحكا:

ـ أين ماهر ياصلاح؟ تمنيت رؤيته..

ـ فى البيت مع المربية..

قال صابر فى سخرية مصحوبة بشهقة:

ـ مربية ..

ـ أقصد الخادمة..

قال كامل قبل أن يسأله صابر:

ـ أيمن عند جدته..

قال صابر فى كلمات ممطوطة:

ـ كم أجر مربيتك؟

ـ مبلغ بسيط، ثلاثون جنيها فى الشهر..

قال صابر بسرعة:

ـ أنا مستعد أحل محلها.. أتوافق ياصلاح؟

ـ اسأل مها.. إن وافقت أوافق..

وتبادلوا الضحكات، والمأذون يقترب، إلى جواره يسير شاب يحمل عنه حقيبته، علق كامل قائلا:

ـ حتى المأذون..

وصمت، قام ودخل مع الرجال إلى حجرة فى شقة الدور الأرضى أعدت لعقد القران إذ لايوجد مكان فى شقة عم حفنى فالشقة مزدحمة بالمدعوِّين النساء والبنات، والطبل والزغاريد، والهرج والمرج..

أعدَّ صلاح بطاقته، والحاج محمد، تناولها المأذون وقدمها لكاتبه، أخذ الكاتب يدون بياناتها، صعد الاثنان وعادا بموافقة العروس، قدم عم حفنى بطاقته كما قدم فاروق بطاقته هو الآخر، قال المأذون:

- أين المنديل ياعريس؟

قدم فاروق له منديلا جديدا ناصع البياض، قلبه المأذون بين يديه، ثم بسطه فوق يدى عم حفنى وفاروق، قرأ بصوت عال الفاتحة ثم صلى على النبى وبدأ إجراءات عقد القرآن التى يحفظها عن ظهر قلب، ثم ختم بالدعاء، وقبل أن تخطف يد صلاح المنديل، كان المأذون قد خطفه، رمقه صلاح بغيظ وهو يطويه ويدسه فى جيبه..

دوت الزغاريد معلنة عقد القران، تبادل العريس التهانى مع المدعوين، مال عم حفنى على المأذون ونفحه أجره، نزلت صوانى أكواب الشربات، وزعت، شربت، أعيدت إلى الصوانى فارغة، قال المأذون وهو ينصرف:

- بالرفاء والبنين إن شاء الله..

قال صلاح لكامل متسائلا:

ـ قلت حتى المأذون وسكت.. ماذا كان فى رأسك؟ ـ

قال كامل مغيرا ماانتوى قوله:

ـ حتى المأذون يستولى على المناديل، يبدو أنه يجمعها ويبيعها بالدستة.. يبدو أننى متخلف، كل شئ يباع ويشترى..

قال صلاح وهو يتأبط ذراعه:

ـ يوما ماقريب، تؤمن بما قلته لك.. صدقنى..

غير كامل دفة الحديث وهو يقول:

ـ علينا أن نهنئ رومية قبل انصرافنا..

لايصدق كامل مايسمع بأذنيه، يرتفع صوت ضحكات مها ويصله رغم الطبل والزغاريد، قام من مكانه وتمشى حتى منتصف الشارع، ظن أنها واقفة فى الشرفة، خمن أنها جالسة داخل الحجرة قال فى نفسه « ليس هذا صوتها، هو بالتأكيد صوت المال».

لم يهدأ بال كامل حتى انتهى الحفل، صعد إلى الشقة، هنأ أم صابر ورومية وتمنى لفتحية هى الأخرى أن يرزقها الله بابن الحلال، هنأ جميع من تمنى المشاركة فى زواج ابنه أيمن، تأبط ذراع سماح وغادرا البيت، لمحهما صلاح فقام فى أثرهما:

ـ فيم العجلة؟

قال كامل:

ـ تأخرنا على أيمن، ربما يبكيه الجوع تأخر موعد إرضاعه..

قال صلاح:

ـ عذرك معك على فكرة، إذا احتجت أى عملة أجنبية يمكننى تدبيرها لك..

تماسك كامل والأرض تميد تحت قدميه، أحست سماح، ضغط ذراعه تحت ذراعها متشبثا به، بينما استطرد صلاح قائلا:

ـ عندى أصدقاء لديهم العملات متوفرة..

شرد كامل، محصلة فكرة راودته منذ مدة، ومازال يفكر فيها، يخشى أن يضربه المتنافسون فى السوق، فكر أن يبعث لأحد أقاربه فى الخارج توصية بالبحث عن مصمم ملابس للنساء وآخر لملابس الأطفال، قال بعد فترة صمت:

ـ ربما أحتاج فعلا.. على كلّ أعطيتنى فكرة، أحادثك تليفونيا إن شاء الله..

ودعهما صلاح وعاد إلى الحفل..

قالت سماح بلهفة:

ـ أتشعر بتعب ياحبيبى..

ـ لا ياحبيبتى، أشعر بأسى وحزن على صلاح..

ـ على فكرة، لم تعجبنى مها هذه المرة، تغيرت عما كانت، كل حديثها عن ملابسها الشيك، وعن شقتها، وعن....

قاطعها كامل قائلا:

ـ كفى ياحبيتى.. يبدو أن الدنيا كلها تغيرت..

شعر كامل برغبة قوية تدفعه إلى احتضان سماح وتقبيلها، حاجته ملحة فى أن ينصرف عما فى ذهنه من فوضى، ألم، رغبة أن يعبر لها عما يجلّه فيها ويحبه، رغم ماوجدت نفسها فيه، من لاشئ، لم تغتر، لم يفقدها ماامتلكت حنانها، حبها، نقاء روحها، تجيش بصدره مشاعر لايستطيع التعبير عنها باللسان، وبالنظرات، يضغط ذراعها بصدره، يده تحتضن يدها، تعتصرها، تتأوه:

ـ أى، يدى ياكامل..

ـ نفسى.. نفسى أقبلك ياسماح..

مادت الأرض تحت قدميها، كادت قدماه تتعثر، قالت:

ـ فى الشارع ياكامل..

برزت فى خيالها على الفور، أمنيتها التى داعبت مخيلتها، قبل أن يرسل إليها بموعد رجوعه، تخيلت نفسها أمام بيت أمها، تراه مقبلا فى الشارع بالسيارة، تهرع إليه، تحتضنه وتقبله، تعلن للناس جميعا حبها.. ضحكت، قالت:

ـ أما نوصل البيت ياحبيبى..

ماأن دخلا من باب البيت، أغلقه بيديه من وراء ظهره، أحاطها بذراعيه، ضمها إلى صدره، امتلكت شفتاه شفتيها فى قبلة طافت بهما فى الزمن تجوب أغواره، تقبض على أسراره، تبعثرها أمام

ناظريهما تحت أهدابهما المرتخية، تنبهت سماح للحظة، خلصت نفسها منه، وهى تهرول صاعدة الدرج:

- أيمن ياعين أمه يبكى..

تناولته من حماتها، تقبله، تضمه إلى صدرها:

- ياحبيبى.. جعت ياحبيبى..

جلست على الكنبة، أخرجت ثديها وألقمته فمه.. قال كامل لأمه:

- عندك أكل يا أم كامل..

- الخير كثير ياحبيبى.. حالا أجهز العشاء..

جلس على الكنبة المقابلة، ينظر إلى سماح، همست فى فرحة:

- أنت مجنون..

- بحبك ياحياتى..

زمت شفتيها وقالت:

- العربة نسيناها..

- لاتخافى.. بعد العشاء أحضرها..

(١٩)

قرب السابعة صباحا، تشغل ربات البيوت بإعداد الإفطار، الشاى، السندوتشات للأطفال والصبية، بعد قليل يخرجون جميعا من دورهم، بيوتهم، شققهم، حجراتهم، الرجال والنساء إلى أعمالهم، الأطفال والصبية إلى مدارسهم، بعض النساء والبنات إلى العمل فى المصنع القريب أو الموظفات إلى مصالحهن أو شركاتهن، البعض يتناول إفطاره، البعض يتناول الشاى، البعض يصلى الصبح، وآخرون يرتدون ملابسهم..

أصيب سكان وأهل أرض الحديقة وسكان الخندق والمدرسة والبيوت المطلة على الجرن بالفزع والهلع، اندفع من اندفع نحو النوافذ، وخرج مسرعا لايلوى على شئ من خرج من بيته، الكل ينتابه الخوف، أقامت الحرب؟ كان الدوى الذى هز الأرض هائلا،

اتسع مداه، ارتفعت سحابة من الغبار غطت سماء المنطقة، بدأت تتقشع بالتدريج، بدأ الخبر ينتشر من فم إلى فم، من شارع إلى درب إلى حارة إلى زقاق، من شقة إلى شقة، حجرة إلى حجرة، انهار بيت مصطفى اللبان..

المعلم مصطفى اللبان، ذاع صيته، بعدما خلت الدور من الحظائر وامتنع الأهالى عن تربية الجاموس، بعدما تحولت الأراضى الزراعية إلى بيوت وشوارع، أقام «زريبة» تضم عددا كبيرا من الجاموس، إلى جانبها شونة للتبن والعلف، يعرفه أغلب السكان فى الحى، فى المساكن الشعبية، فى أرض الفتوة، وأرض أبو عمة، يذهب إلى محله الزبائن فى مواعيد إما صباحية أو مسائية، وله مواعيد أخرى عقب ذلك يحمل أقساط اللبن على دراجة ويلف شارعا شارعا، حارة حارة، زقاقا زقاقا، ينادى «الحليب، حليب يالبن»..

لايعرف إلا المقربون من أهله أنه باع البيت المنهار منذ أكثر من عامين، قام المشترى ببناء طابقين فوق الطابق الأرضى الذى سلمه له المعلم مصطفى، كان من المفترض أن يقوم المالك الجديد برفع السقف الخشبى للدور الأرضى، وإقامة أعمدة خرسانية مساعدة تسند المباني، حتي يستطيع البناء فوقه، لكنه بني طابقين فوق الأرضى، وأجر أربع شقق بكل طابق شقتان، توقع بعض الناس خطورة العقار، لكن بعد وقت قصير للغاية نسى الجميع، فالكل مشغول بأمور حياته، والكل يسعى للاستزادة من كسب الرزق، بعد أعوام كثيرة من الكبت والحرمان..

يضم البيت المنهار ضحايا الطابق الأرضى، يضم عائلتين إحداها من خمسة أفراد، والثانية ثلاثة أفراد، والطابق الثانى يضم أسرتين، أسرة فى بدء حياتها زوج وزوجه، وأسرة أخرى تضم ستة أفراد، أما الطابق الثالث ، ففيه شقة بها أثاثات عروس تحدد زفافها فى العيد، والشقة الأخرى مازالت تحت التشطيب..

الكارثة تلم بعائلات تقيم بالقرب من البيت المنهار، خرج فوج النسوة متشحات بالسواد من درب قطة تلطمن الخدود، تصوتن، تندبن، ابن واحدة منهن ضحية الإنهيار يسكن فى شقة بالدور الأرضى، ومن درب العمدة خرج فوج آخر تندبن ابن إحداهن لم يمض على زواجه بضعة أشهر، وأم زوجته تتمرغ فى تراب الأرض على ابنتها الوحيدة.. وفود أخرى من زقاق بدر، ومن حارة بكر، ومن الشارع الدائرى، اندفعت النسوة إلى الأنقاض، حال الرجال بينهن وبين تل من التراب والطوب والخرسانة وأسياخ الحديد المشرعة كالسهام، يحاول بعض الرجال إزالة الأتربة، وأعلن البعض الإنتظار حتى يأتى رجال الإنقاذ..

دوى عاليا صفير سيارة بوليس النجدة، نزل الضابط ومعه أربعة من العساكر أخذوا بعصيهم يفرقون الجموع الغفيرة، اتجهت النسوة إلى سطح الخندق وجلسن مقرفصات، مولولات، باكيات بينما صعد بعض الصبية والبنات والشباب إلى الدور الثانى من مبنى المدرسة والتى لم يتم تشطيبها بعد، وقفوا فى النوافذ وفوق السطح، فشل الغفير فى طردهم، فكف عن مطاردتهم..

جاءت عربة الإنقاذ، يتبعها عربة أخرى، على الفور بدأوا العمل

فى إزالة الأتربة، ورفع بعض الأنقاض، لما أعيتهم الحيل أمام قطع الخرسانة، طلب الضابط من جهاز اللاسلكى فى السيارة ونشاً لرفع الكتل التى تعوق البحث عن الضحايا..

أخرجوا بعض الجثث، أشار الضابط لبعض الرجال للتعرف عليها، دوّن كل ماقالوه، وبعد الإنتهاء من تعرف الأهل على ذويهم، أمر بوضعها فى مدخل البيت المواجه له، اعترض سكانه وأصحابه، طلب منهم إمهاله بعض الوقت حتى تأتى عربة المشرحة، لكن النسوة دفعن بأزواجهن لإخراج الجثث إلى جانب الجدار الخارجى، أرسلن بالملاءات لتغطيتها، أعلنت النسوة خوفهن من ظهور العفاريت ليلا وإفزاعهن وأولادهن، بل طلبت إحداهن من زوجها ترك البيت والبحث عن سكن آخر، أحاديث متفرقة تدور بين الجماعات المتجمعة، جماعة تتحدث عن الخطأ فى التعلية دون إقامة أساس من الخرسانة والحديد، جماعة تتحدث عن جشع مصطفى اللبان بغية الحصول على الأموال كخلو أو إيجار، جماعة من الشباب تتحدث عن ظهور العفاريت ليلا وقطعها الطريق فى الليالى المظلمة، جماعة تتحدث عن همة رجال الإنقاذ، وهم يستخرجون الجثة تلو الجثة، بعض الشباب أصيب بالغثيان، البعض الآخر كان يغطى عينيه بيديه حتى لايشهد جثة يحملها رجال الإنقاذ، شبح الموت يخيم على الجميع..

جاء المعلم مصطفى اللبان، أعلن أمام الجميع أنه باع البيت، أخرج من جيبه ورقة مطوية قدمها للضابط:

ـ عقد البيع ياحضرة الضابط، أنا برئ من البيت وماحدث فيه..

دس الضابط العقد بين أوراقه، أمر المعلم مصطفى بالدخول إلى السيارة، أحضرت بعض الكراسى، أحضر رجل صينية الشاى، وزع الأكواب على من توسم فيهم الأهمية، جلسوا يتابعون عملية الإنقاذ..

جاء أحد رجال الإنقاذ وقال:

ـ يبدو أنه لايوجد بينهم أحياء..

ـ واصلوا البحث..

أفسح المزدحمون فى الطريق طريقا، مر من بينهم الونش، بدأ يعمل على نقل الكتل الخرسانية وإلقائها بعيدا إلى جوار سور المدرسة، بدأت صيحات بعض المشاهدين:

ـ ذراع هناك ياريس..

يهرع رجال الإنقاذ، يرفعون بأيديهم التراب والحجارة والطوب، يخرجون الجثة..

ـ ساق تظهر فى الجانب ياريس..

تتم عملية التعرف، يدون الضباط البيانات فى أوراقهم، يعودون إلى مكانهم فوق الكراسى فى انتظار ظهور ضحية أخرى..

جاءت سيارة صغيرة، قرأ الناس عبارة مدونة على بابيها «صحافة» نزل منها رجلان يحمل أحدهما كاميرا، أخذ يلتقط صورا للحادث، من كل زاوية، من كل مكان، صعد إلى نافذة الدور الثانى بالمدرسة، بينما وقف الثانى إلى جوار الضباط يأخذ مايقولونه ويدونه فى أوراقه، يقول قائل:

ـ يظهر الحادث صباحا فى الجريدة..

يعلق آخر:

- سيطلب المعلم لطفى كمية أكبر من الجريدة..

علق ثالث:

- سيبيع بالسعر الذى يريده...

يقول رجل:

- مصائب قوم عند قوم فوائد..

امتلأت جوانب الشارع بالأكوام، أكوام ملابس، أكوام أثاثات مكسرة، أكوام حلل وأوانى معوجة محطمة، أكوام كراسى معطوبة، بعض المواقد، تليفزيونان محطمان، بوتاجاز وأنبوبته.. تعليق من شاب:

- الحمد لله.. لو انفجرت لاشتعل الحريق..

تعليق من رجل:

- قد يدس بعض رجال الإنقاذ مايجدونه من أموال أوذهب فى جيوبهم..

أقبلت العربة السوداء، نزل منها رجلان، اقترب أحدهما من ضابط النجدة، مال إليه يحدثه، أشار الضابط إلى الجثث المغطاة بالملاءات، قام وزميله برفعها داخل صندوق العربة المغلق، أطلقت النسوة صراخها، حاولن الإلتفاف حول العربة ومنع نقل الجثث، فرقهن العساكر صاح الضابط:

- كل من له جثة يتسلمها من المشرحة..

أسرعت تجمعات بعض النسوة، يصحبهن بعض رجالهن، أوقفوا التاكسيات، ركبوها، انتظروا انطلاق العربة السوداء لمتابعتها حتى المشرحة..

يتندر البعض فى تعجب:

- ياسبحان الله، قلّة من الفخار تخرج سليمة ويموت بنى آدم..

يشير آخر لصديقه ويقول:

- انظر، شفشق زجاجى يخرج سليما..

قرب المغرب، انكسرت حدة بياض النهار، كست الوجوه سحابة رمادية آخذة فى الأفول، انتهى رجال الإنقاذ من عملهم، لم يبق مكان البيت المنهار إلا بعض أكوام الأتربة، بينما سدت أكوام التراب التى نقلها «اللودر» الذى جاء متأخرا الشارع واستحال مرور سيارة أو دراجة به، بدأ انصراف رجال الإنقاذ إلى عرباتهم، ركب ضابط النجدة والعساكر سيارتهم، خلى المكان من الرسميين، بدأ الهجوم على أكوام البقايا المحطمة، والملابس، والأوانى، والحلل، وبدأت تدب المعارك بين أهل الضحايا الذين بقوا مكان الحدث، والناهبين لأشياء ضحاياهم..

بدأت بعض الأضواء تسقط شاحبة على المكان، من النوافذ، الشرفات، لمبات مثبتة فوق بعض أبواب البيوت، رائحة الموت تتموج مع هبات الهواء، خلت المدرسة، خلى الشارع أغلقت بعض المحلات أبوابها، بقايا تجمعات للشباب والصبية متناثرة، تعيد، وتزيد فى الحديث عن الكارثة..

جاء أمير فزعا بملابس الجيش إلى صابر، قال بكلمات تخرج مرتعشة:

- هل نجا أحد من الانهيار؟

- كلهم ماتوا..

- كارثة بكل المقاييس، كان الله فى عون أهالى الضحايا..

تدخل عم حفنى متأثرا:

- ربك هو الستار..

قال صابر لأبيه:

- مادمت تؤمن كل هذا الإيمان، لم ضربت علياً بالعصا..

ثم قال لأمير:

- ناديت الولد علىّ، طلبت منه شراء سجائر لى، فوجئت بأبى يضربه بعصاته، سألته عن السبب قال لى الولد يقفز من البسطة للبسطة، السلم ينهار..

قال أمير:

- اعذره ياصابر، الأعصاب مهتزة، أنا نفسى أعصابى مهتزة، ثق أن كل الناس فى الحى أعصابها مهتزة..

ثم استطرد محاولا التسرية عن نفسه وعن عم حفنى:

- يعنى لو عيل ابن حرام ضرب بمبة وسط الشارع، تتفرج على فزع الناس وصوات النسوة..

قال صابر:

- المصيبة الأكثر فداحة، كل أسرة من أسر الضحايا لها أقارب، وعلاقات نسب مع كثير من الأسر.. يعنى الضحايا خمس أسر، الحزانى فى البيوت أكثر من خمسين أو ستين أسرة..

- كان الله فى عون الجميع..

ثم استأذن أمير قائلا:

- أخلع عنى الميرى، بعد العشاء نلتقى..

قال عم حفنى..
ـ الكل عندنا مضرب عن الطعام.. الجائع يموت من الجوع..
قالت أم صابر بعد انصراف أمير:
ـ نجهز لك الأكل..
قال عم حفنى فى لامبالاة:
ـ آكل وحدى وأمرى لله..

وقف صابر فى الشرفة، وقفت أم على فى شرفتها، يقص عليها بعض مارآه، دموعها تتساقط من عينيها، تمسحها بين الحين والحين فى صدر جلبابها.. قالت:
ـ أنا خائفة..
أشار بيده قائلا:
ـ لفى.. تعالى..

غادر الشرفة، جاء من المطبخ بكرسى من الخشب صغير، وضعه بجوار أمه وجلس عليه ينتظر قدوم أم على، ليواصل أحاديث لاتنقطع بالليل أو بالنهار..

يشعر كما تشعر هى بأنهما تخلصا من كابوس إسمه علا، وقد نقلت إلى أسرة صابر عدم موافقتها على الزواج منه دون إبداء الأسباب..

(٢٠)

بعد أن رد كامل على التليفون، قال لسماح:

- جهزى لى شنطة السفر الصغيرة، ضعى الجلباب والشبشب فقط، أسافر للمنصورة مع صابر وزوج أخته رومية..

واتجه إلى الحمام، قال وهو يحلق ذقنه:

- عم عبده يوصلك عند أمى، أو أمك، كما ترغبين..

- متى تعود؟

- مساء الغد ياحبيبتى.. ادعى الله أن يوفقنا..

- قلبى يقول لى أنك موفق بإذن الله..

- يارب ياحبيبتى يارب....

اتجه إلى حجرة النوم، يرتدى ملابسه، ينظر إلى فراش أيمن:

- صحى الولد أعاكسه قبل سفرى..

- لأ.. اتركه.. لاتقترب منه، عندى شغل فى المطبخ لابد يخلص قبل ذهابى..

انتهى من إرتداء ملابسه على عجل، أحاطها بذراعيه، قبلها، وحمَّلها بعض القبل لأيمن خرجت فى وداعه، هتفت:

- نسيت مفاتيح العربة..

- نركب مع فاروق..

وانصرف مسرعا، أوقف تاكسيا أقله إلى أرض الحديقة..

***

عند أول الشارع، غادر كامل التاكسى، لمح أول ملامح لوحات العربة الجيب «ق. ع» قال فى نفسه « ربنا يستر»، ثم رفع عينيه إلى الشرفة، لمح فاروق وصابر ينظران نحوه، عندما اقترب تحت الشرفة، قال صابر:

- اصعد، أبى يريدك..

قابله عم حفنى عند باب الشقة، أمسك ذراعه، قاده إلى حجرة نومه، قال فى همس:

- إصرارى على ذهابك معه له هدف..

- أعرف هدفك ياعم حفنى..

- لاتعودوا بدون نتيجة.. أخوك كبر، لابد من زواجه..

- اطمئن ياعم حفنى..

- وجودك معه هذه المرة يدخل لروحى الاطمئنان.. ربنا يوفقكم ياولاد..

ودعتهم أم صابر، الدعاء بالتوفيق والعودة بالسلامة، ثم نبهت فاروق:

ـ على مهلك يافاروق:

انطلقت بهم السيارة الجيب، وأسرة عم حفنى تقف بالشرفة تتابعهم بالدعوات..

***

بعد مسيرة بضعة كيلومترات، اخرج فاروق من جيبه ورقة قدمها لكامل وقال، اكتب:

ـ القاهرة ـ المنصورة..

قرأ كامل التصريح، قال مندهشا:

ـ كيف تحصل على التصاريح؟

ـ من الشركة، معى الكثير منها للطوارئ..

كتب كامل ماأملاه عليه فاروق، قال صابر:

ـ ربنا يسهل الطريق، نصل بسرعة..

قال فاروق:

ـ اسمع ياصابر، زوج خالتك أخبرنى أن هذه آخر مرة يختار لك فيها، إذا رفضت قل لأبيك يكف عن إلحاحه عليه.. قال لى أن إلحاح عم حفنى يحرجه..

ثم توجه فاروق إلى كامل الذى اتخذ مجلسه بجواره فى المقعد الأمامى:

ـ ياأستاذ كامل، خاله الحاج محمد اختار له أربع بنات، لم تعجبه ولا واحدة.. نفض يده من الموضوع..

قال صابر بضيق:

ـ لم أجد فى أى واحدة الصفات..

قاطعه فاروق:

ـ ولن تجد ماحلمت به فى أىّ فتاة.. الحلم شئ والواقع شئ آخر.. يكفى أن البنت تكون بنت ناس، تربية وأخلاق، دين وروح خفيفة..

معى فى رأيى ياأستاذ كامل..

قال كامل وهو ينظر إلى صابر:

ـ أمازلت عند أفكارك القديمة، فتاة اجتماعية، تفرض وجودها فى أى مكان، ترقص، لبقة فى الكلام.. اعتقد أنك مازلت فى أوهامك.. ثق أنهن كلهن مهما كّن فى الفراش امرأة واحدة.. أما مايهم هو فعلا أن تكون أمينة وعلى خلق، ومن بيت معروف أهله بالصلاح

علق فاروق قائلاً:

ـ كلام موزون وواقعى..

بعد ـ الانصراف إلى أحاديث مختلفة، مرة عن صلاح إمام، ومرة أخرى عن حسن فخرى، وثالثة عن الفترة التى قضاها صابر فى ليبيا، ورابعة عن كارثة البيت المنهار، وخامسة عن أوضاع السياسة فى البلد ـ شعروا جميعا بالإنهاك، لم تستهلك كل أحاديثهم إلا تقريبا نصف الطريق، خيم الصمت، كل ينظر من نافذة تخصه..

سبق كامل عجلات السيارة، يعرف عدد البيوت التى دخلها مع صابر من قبل، فى زيارات سابقة، خالاته الخمس، وأولادهن، أزواجهن، لقى كل الترحيب، وكل الود، وكل المحبة، لم يشعر أنه ضيف أحل بينهم، بل شعر بأنهم أهل له كما هم أهل لصديقه..

يشعر صابر بنوع من الأرتياح لما عرضه فاروق عن تخلى خاله الحاج محمد عن السعى لتزويجه، يشعر بأنه سيرتاح أيضا إذا تخلى عنه زوج خالته، حينئذ يكف أبوه عن الإلحاح، قفز أمام مخيلته، وجه أم على كبقعة ضوء فى الظلام الدامس الساجى على الحقول، تبتسم، يرى صفى أسنانها كحبات الندى، وجنتيها النضيرتين، يتحول صوت موتور السيارة إلى صوت ناعم رقيق يداعب أذنيه، كأنه يسمعها تقول:

- قدر ومكتوب أن ألقاك بعد زواجى.. قدرى أن أعيش بقية حياتى حزينة بعد زواجك..

يهز رأسه ليفيق، يقول لفاروق:

- أتدخل البلدة بالعربة..

قال فاروق:

- ربنا يستر..

ثم توجه بالحديث لكامل:

- رئيس مجلس إدارة الشركة يقضى الخميس والجمعة فى البلد. أول مرة أجازف وأسافر بعربة الشركة..

ثم يستطرد وهو يبطئ من اندفاع العربة:

- عموما هو رجل طيب، غاية مافى الأمر يلفت نظرى للخطأ..

تتوغل السيارة فى الظلمة، تضئ كشافاتها كلما اقتربت كشافات سيارة فى الطريق المعاكس، قال كامل:

- أراك وكأنك تحفظ الطريق..

- أقطعه كل يوم خميس مسافرا والجمعة عائدا،، نصف مرتبى

مصاريف سفر..

قال صابر:

- أحمد ربك، وظيفة لم تخطر لك على بال..

- فعلا.. أحسن من فلاحة الأرض، ريها، الفلاحة مهنة متعبة..

قال صابر وهم يقتربون من البلدة:

- انزلنى عند القنطرة، اكتشف ماإذا كان رئيسك موجودا أم لا..

قال فاروق وهو يعبر القنطرة إلى البلدة:

- لأجل خاطرك ياصابر..

فجأة أوقف العربة وقال:

- تصور أنه يجلس أمام الدار..

قال كامل:

- والعمل؟

تراجع فاروق بالعربة، قال وهو يخترق الحقول:

- نتركها عند الغيط..

توقف مرة أخرى أمامه بركة من الماء:

- أخاف تغرز منى العربة..

ينظر وراءه تتراجع العربة بحرص، عدل اتجاهه إلى مدخل القرية، سار على مهل، عندما اقترب من بيت رئيسه، ألقى التحية على الجالسين، استمر فى سيره، قال:

- ربما يوم السبت يكون نسى الموضوع..

أوقف العربة أمام بيت خالته، نزلوا منها جميعا، طرق صابر

باب الدار، رد عليه صوت رقيق، يفتح الباب، يدخل صابر وبعده كامل، ألقى نظرة خلف الباب، رأى على الضوء الشاحب وجها جميلا لفتاة ناضجة، تبع صابر، لحق بهما فاروق، دخل زوج الخالة، حياهم مرحبا، فرحا وسعيدا، وقف بباب الحجرة طالبا إعداد العشاء...

***

قام عم السيد بواجب الضيافة كأحسن مايكون، وبعد قضاء سهرة لطيفة، والاتفاق على موعد زيارة أسرة العروس بعد صلاة الجمعة، استأذن وتركهم للنوم، حاول فاروق الاستئذان ليذهب إلى بيت أسرته، استبقاه كامل، سأله السؤال الذى شغله طيلة الوقت:

- من فتحت لنا الباب؟

- ابنة خالتى سميرة..

- اسمها سميرة.. أمتعلمة هى؟.

- حصلت على الإعدادية العام قبل الماضى..

- جميل.. هل طلبها أحد من أهل البلدة للزواج..

- لم يطلبها أحد.. ماذا تقصد؟

ابتسم كامل وقال:

- ليلتنا صباحى بإذن الله، ابق معنا وإذا غلبك النوم نم هنا معنا..

عاد صابر بعد أن أمضى وقتا قليلا مع عم السيد وأولاده وخالته، أغلق باب الحجرة، اقترب من مفتاح النور ليطفئه، قال كامل:

ـ لاتطفئ النور.. تعالى اجلس بجوارى..

باغته بالسؤال بعدما جلس:

ـ مارأيك فى سميرة؟

أصيب صابر بإرتباك، تلفت حواليه وقال:

ـ سميرة صغيرة، أنا اكبرها بعشر سنوات على الأقل..

بدأ كامل يتحدث ويقنع صابر بأن فارق السن أفضل، وأن التقارب فى السن غير مريح وعرض عليه حالة صلاح ومها، وما دب بينهما من خلافات، وما انتهى إليه الأمر أخيرا من دفعه إلى طريق غير مأمون العواقب، وأخيرا قال:

ـ بينى وبين سماح زوجتى ١١ سنة.. هل اقتنعت..

ـ لا أدرى..

قال فاروق:

-من باب أولى كنت رفضت زواجى من أختك، بينى وبينها ١٢ سنة..

سأله كامل:

ـ هل فيها عيوب مثلا تمنعك من الزواج بها..؟

قال صابر كأنه يصفها:

ـ أبدا، سميرة جميلة، رقيقة، طيبة، خالتى تحبنى، عم السيد يحبنى وبذل كل مافى طاقته لاختيار عروس لى، كيف وبأى وجه أطلب يد ابنته، لاأستطيع..

قاطعه كامل:

ـ أريد فقط موافقتك عن اقتناع..

قال فاروق:

- ياجماعة، اقترب الفجر، دعونا ننام والصباح رباح..

- نم أنت..

قالها كامل، وعاد إلى استثارة صابر للحصول على موافقته عن اقتناع وطيب خاطر، قال:

- أتعرف أننى سعدت جدا بزواجى من سماح، طبعا الأعمار بيد الله، لكن من أحسن الاختيارات اختيار الزوجة صغيرة السن، أولا عندما تصل إلى الشيخوخة، تكون هى قادرة على القيام بخدمتك، إذا مرضت تمرضك، لكن أن أصل إلى الشيخوخة وتصل هى معى نفس المحطة مشكلة وأغلبنا كرجال شرقيين لانعرف كيف نخدم أنفسنا، أغلبنا لايعرف كيف يعد لنفسه كوب الشاى، تخيل نفسك وزوجتك فى الستين مثلا، من منكما يخدم الآخر.. ثم لاحظ، أتذكر نقاشنا أيام التلمذة، عن الأم والأب، تعرف طبعا المثل «الأم تعشش والأب يطفش» من تجارب الحياة، تجد أن الأم فى حالة وفاة الزوج تقنع بنصيبها، وتشقى وتترهبن على تربية أولادها.. هل يفعل الرجل ذلك إذا ماتت زوجته؟

- لأ طبعا.. لايستطيع أن يحل محلها..

- يتزوج ويحضر للأولاد زوجة أب..

- يجد الأب نفسه فى جحيم..

بدا كامل منشرحا لإقناع صابر بوجهه نظره، قال أخيرا:

- والله ياصابر، لو كنت دون زواج حتي الآن لطلبت يدها فورا وتزوجتها..

ارتفع صوت المؤذن ـ دون ميكروفون ـ عاليا، يجوب بأصدائه فضاء السماء والأرض، قال صابر:

ـ عم السيد صحا من نومه، سيتوضأ الآن...

قال كامل:

ـ نتوضأ بعده..

***

قال كامل بعد أن أدوا صلاة الفجر:

ـ تعالى نتمشى فى الغيطان..

تركهما عم السيد يحققان رغبتهما، مشيا يتنفسان هواء الفجر الرطب الندى بشراهة، قال كامل:

ـ هواء صحى ألف فى المائة، نحن نتنفس فى المدينة السموم، والله الحياة هنا جميلة..

ـ يخيل لك، الهدوء هنا قاتل، تعرف المقهى عند القنطرة تغلق أبوابها بعد صلاة العشاء، وأحيانا بعد العاشرة فى الصيف.. يعنى لامكان للترفيه، للنزهة..

ـ قل إن الضجيج والصخب يسرى مسرى دمنا فى العروق.. هذا بيت القصيد...

يداعب صابر بعض الحصى بحذائه:

ـ تصور سميرة جميلة بالفعل، غريب ألا ألاحظ ذلك من قبل، أبوها يبحث لى عن عروس وهى فى بيته..

ـ وهل تظنه يعرضها عليك؟

ـ يلفت نظرى على الأقل..

ـ أعتقد ليس فى الريف من يعرض ابنته للزواج؟، فى المدينة يحدث أحيانا..

فثم استطرد كامل لإثارته:

ـ المهم موافقتها..

ـ أتظنها ترفضنى؟

ـ ممكن..

نظر صابر فى تأمل لكامل، ثم أخرج علبة سجائره، قدم لكامل سيجارة وأشعل لنفسه أخرى:

ـ كلامك يدفعنى لأن أذهب إليه الآن وأطلبها منه..

ـ تصرف أحمق..

قال صابر فى غضب:

ـ لاتحيرنى معك..

ـ ياحبيبى اصبر، ثق أن طلبك يد سميرة يفجر قنبلة، مفاجأة..

ـ فعلا.. ستكون مفاجأة مذهلة..

ـ إذن لاداعى لتفجيرها الآن.. خذ الأمور ببساطة، عم السيد على موعد، نفى معه بالموعد، ثم ونحن متأهبون للسفر، إلق قنبلتك، أخبرك وقتها ماذا تقول؟

ـ موقف صعب.. من أصعب المواقف..

ساقتهما أقدامهما إلى القنطرة، جلسا على السور الخشبى، ينظران إلى جريان المياه المنسابة فى الترعة، ضوء النهار يغمر السماء والأرض، الشمس بازغة فى شرق الأفق ترسل أشعة حانية، المقهى على الطريق تفتح أبوابها، يقوم صاحبها بعمليات الصباح

المعتادة، يكنس يدفع بالكناسة إلى حافة الغيط المجاور، يأتى ببعض الماء يرشه فوق التراب، يخرج الكراسى الخشبية منسوجة قواعدها بالخوص، يخرج دكتين من الخشب يضعهما على يمين ويسار الباب، يضع فى المنقد بعض قطع الفحم، يرش فوقها بعض الجاز، يشعل عود الثقاب، يقربه من المنقد فتتوهج، يضعها أمام المقهى، يوقد وابور الجاز يضع فوقه الغلاى الكبير بعد ملئه بالماء، يفتح باكو الشاى، يضعه فيه، يبدأ فى غسل الأكواب بالماء، أنزل صابر فخذه من فوق السور الخشبى للقنطرة، استوى واقفا على قدميه، قال:

ـ تعالى نشرب الشاى..

بعض سيارات النقل الكبيرة تجتاز الطريق فى الإتجاهين، بعض سيارات الركوب الصغيرة، عبرا إلى المقهى، جلسا فوق كرسيين بينهما منضدة صغيرة من الحديد لها ثلاثة أرجل، قرصها مستدير، قال صابر وتبعه كامل:

ـ صباح الخير..

ترك عم حسانين مافى يديه، خرج إليهما وهو يجفف يديه فى ذيل جلبابه، انحنى وهو يقدم كفه لمصافحتهما:

ـ صباح الفل، نهارنا أبيض إن شاء الله..

ـ شاى لنا ياعم حسانين..

ـ غالى والطلب رخيص.. بحليب؟

ـ لأ.. سادة..

قال كامل مبتسما:

- كلانا يحتاج لبراد شاى..

أقبلت من داخل البلدة سيارة أوبل كبيرة الحجم للركاب، تقوم بنقل أهل البلدة إلى المنصورة وتعود بغيرهم، يذهب بها العاملون بالمركز أو المدينة، أو الذاهبون للأسواق، كما يستعان بها فى المشاوير الخاصة أو العاجلة، تركها صاحبها بجوار القنطرة فى قطعة أرض ممهدة تطل على الترعة الكبيرة نوعا، غاص كامل فى الماضى، كانا يجلسان على نفس المقهى وفى نفس المكان تقريبا، فى انتظار الأتوبيس ليقلهما للقاهرة فى الجهة المقابلة عربتان من نفس الموديل، فوجئ بإحداهما تتحرك ببطء نحو الترعة، صاح وهو يعبر الطريق جريا:

- الحقوا العربة..

جرى وراءه كل جمهور المقهى، التفوا حول جانبى العربة وفى مقدمتها، كل يمسك ويجر ناحية الطريق، قال صاحبها لكامل بعد إنقاذها:

- جزاك الله خيرا ياأستاذ، لولاك لسقطت فى الترعة...

قال صابر:

- يجب تأمينها بفرامل اليد..

قال كامل فى نفسه «لعل عم حسانين يعرفه منذ تلك الواقعة، وإلا ماقام بمصافحتهما بصورة ودية أكثر من اللازم»..

وضع عم حسانين صينية ألومنيوم صغيرة فوق المنضدة الصغيرة الحديدية، ثم عاد ليقوم بإعداد الجوز، رص حجارتها بعد وضع المعسل بها لتكون جاهزة لطلب الزبائن..

لمحهما فاروق وهو يقترب من القنطرة، جاء إليهما:

- أبحث عنكما، أمى جهزت الإفطار..

قال صابر:

- خالتى سيدة وعمك السيد يزعلان..

- قلت لهما أن الإفطار عندنا..

سحب فاروق كرسيا بعدما ألقى التحية على عم حسانين الذى بادره متسائلا:

- أتشرب شايا يافاروق؟

- لا ياعم حسانين، تشكر..

تثاءب فاروق وهو يقول:

- ليلة يعلم بها الله، عمرى ماسهرت مثلها..

قال كامل مبتسما:

- المهم ماخرجنا به من فائدة..

اتجه فاروق إلى صابر:

- خلاص.. استقر رأيك على سميرة..

- إن شاء الله..

قال كامل محذرا فاروق:

- لاتخبر أحدا، كأنك لاتعرف شيئا..

- ولاعمك زكى؟

- لا والدك، ولا والدتك، ولاأحد على الإطلاق..

قال فاروق لصابر:

ـ لابد أن تزور خالتك بهيجة حتى لاتزعل ويزعل زوجها الحاج برعى، وخالتك فرحانة هى الأخرى، وخالتك زهرة.. يعنى زيارات ضرورية..

ـ نحاول الانتهاء من هذه الزيارات قبل صلاة الجمعة.. ثم نذهب بعد الصلاة مع زوج خالتى عم السيد لرؤية العروس..

أشار فاروق بذراعه على امتداد الطريق وقال:

ـ العروس فى قرية قريبة هناك.. قرية.....

قال كامل:

ـ عموما تكون زيارة قصيرة لمجرد الوفاء بالموعد.. بعدها نتوكل على الله ونسافر..

قال فاروق:

ـ أمى بدأت تعد الغداء، ذبحت الطيور.. عجنت الدقيق، و..

قال صابر:

ـ الوقت ضيق، أم سميرة تزعل..

قال فاروق، وهو يقف بعدما فرغا من تناول الشاى:

ـ أنا استأذنت عم السيد لما قمت من النوم ولم أجدكما، أخبرنى بأنكما تتمشيان فى الغيطان..

عبروا الطريق، اجتازوا القنطرة، أشار فاروق إلى الممشى وسط الغيطان وقال:

ـ نمشى من هنا، حتى لاترانا خالتك بهيجة..

يتبرم صابر من بطء وثقل الوقت، لاحظ كامل تطلعه الدائم إلى ساعة معصمه، قال ممازحا:

ـ إخلع ساعتك ياصابر وإعطها لى..

تبادلا الابتسام، يتابعان عم السيد وفاروق فى المقدمة جنبا إلى جنب، يتبعانهما وكامل يرسم خطة إلقاء القنبلة المفاجأة، يهز صابر رأسه متتبعا وموافقا، استراح للخطة، تعجل مرور الوقت لتنفيذها..

هتف صابر مناديا فاروق، أبطأ من خطواته، قال له:

ـ مهمتك تخليصنا من عزومة الغداء عند أهل العروس..

ـ لاتخف.. جئت لهذه المهمة..

قالها فاروق ولحق بعم السيد، انحرفوا عن الطريق إلى مدخل القرية، استقبلهم والد العروس وأخوه وابنه، رحبوا بهم أيما ترحيب، قادوهم إلى حجرة الصالون، كراسى مذهبة، منضدة خشبية فى الوسط فوقها لوح من الرخام، بعض الآيات القرآنية معلقة على الحائط، صورة كبيرة لرب الأسرة تتوسط أحد الجدران، تطل نافذتها على الحارة، قال فاروق:

ـ جئنا نشرب الشاى ياحاج..

رحب رب الأسرة قائلا:

ـ الصبر يافاروق، الغداء جاهز وبعده الشاى..

قال فاروق وهو يقترب منه قرب باب الحجرة:

ـ سامحنا ياحاج، الوقت ضيق وأمامنا سفر..

قال الحاج، وهو يهم بمغادرة الحجرة:

ـ اقضوا اليوم معنا، سافروا فى الصباح..

قال صابر:

- أعذرنا ياحاج، فى الحقيقة لابد من سفرنا اليوم..

وهو ينظر إلى ساعته أردف:

- بعد ساعة على الأكثر لإرتباطنا بمواعيد فى القاهرة..

بعد شد وجذب قال عم السيد:

- الأيام مقبلة ياحاج، يكفينا الشاى اليوم..

ثم قدم صابر لرب البيت، وصديقه كامل، إلى والد العروس وأخيه وابن أخيه، تبادلوا التحايا والتواد، قال رب البيت لابن أخيه:

- أطلب منهم الشاى يامحسن..

بدأ والد العروس يتحدث عن ابنته، دراستها، حصولها على دبلوم التجارة، لم يوافق على توظيفها، وفضل ترك هذا الأمر لزوجها القادم، وتحدث عم السيد عن صابر، وعن شهادته ووظيفته فى القاهرة تدخل محسن قائلا:

- حقيقة أوجدت لها وظيفة فى المركز، لكن عمى رفض..

توقف الحديث، اتجهت عيون كثيرة إلى باب الحجرة، يقول رب البيت:

- أدخلى ياسعاد..

دخلت فتاة ترتدى جيب رمادى وبلوزة بيضاء، شعرها ينساب على جانبى وجهها، تبدو ببشرتها بعض حبوب الشباب، بدت لكامل كأغلب فتيات الريف جمال طبيعى، لا زينة، ولا أحمر ولأبيض، شملت سعاد الجميع بنظرة عابرة وهى تضع الصينية، ثم تستدير منفلتة من باب الحجرة..

قال عم السيد وهو يتناول كوب الشاى من محسن:

- ربنا يجعلها من نصيبك ياصابر..

قال كامل ليرفع الحرج عن صابر:

- والله الزواج قسمة ونصيب، ولاأحد يعرف، أين أو متى يأيته نصيبه..

يلحظ كامل تجرع صابر كوب الشاى على ثلاث دفعات، يتلقى نظراته القلقة، ينظر كامل إلى الأكواب الفارغة، ينهض واقفا، يتبعه الباقون يتمسك رب البيت ببقائهم، يعرب عن دهشته لزيارتهم القصيرة، يسبقهم صابر إلى مدخل البيت، يضطر رب البيت إلى الخروج لتوصيلهم يتبادلون المصافحة، ينصرف الضيوف، ويعود رب الدار وأهله إلى داخل البيت..

بادر عم السيد صابر بالسؤال:

- مارأيك ياصابر؟

قال صابر:

- تبدو فى الثلاثين من عمرها..

أمسك كامل بحبل الحديث:

- هل محسن ابن عمها متزوج ياعم السيد؟

- لأ على قدر علمى..

- إذن هو أولى بها..

عقب صابر قائلا:

- تعبتك معى يازوج خالتى.. أرهقتك كثيرا..

- يهمنى مساعدتك ياصابر، أرى أنها فى مثل سنك..

قال صابر وهو ينظر لكامل:

- عموما، أخبرك برأيى عند سفرنا..

قال عم السيد فى ارتياح:

- الله ينور عليك، على الأقل أقدر

أرد عليهم إذا سألونى..

***

حانت اللحظة الحاسمة، يخترقون الأزقة، عند حافة الجرن ركبوا العربة الجيب، قال فاروق:

- ماذا تقول لعم السيد؟

قال كامل:

- اصبر وسترى..

أوقف فاروق العربة أمام بيت عم السيد، ناداه، خرج بينما وقفت أم سميرة بالباب:

- أنا زعلانه منك يافاروق..

رد فاروق:

- البيت واحد ياخالتى، هنا أو هناك مافى فرق..

استند عم السيد إلى جانب باب العربة الجيب ناحية كامل، ابتدره كامل قائلا:

- طبعا تعرف ياعم السيد أن الزواج قسمة ونصيب..

- طبعا، ورضا وقبول..

قال كامل وهو ينظر إلى صابر:

- صابر اختار عروسه والحمد لله..

امتلأ وجه عم السيد بالبشاشة، قال فرحا:

- يعنى أبلغهم الموافقة..

عاجله صابر بقراره:

- أنا اخترت سميرة بنتك يازوج خالتى..

أصيب عم السيد بالارتباك، تلفت حواليه، أدار لهم ظهـره، ثم استدار ونظر إلى صابر قائلا والعرق ينضح على جبهته وفودية:

- بنتى أنا ياصابر..

- سميرة بنتك، فكر على مهلك..

قال كامل:

- خلال الأسبوع القادم تزوركم أم صابر وتعرف قراركم..

وأشار كامل لأم سميرة ملوحا بالتحية، مد يده وجذب يد عم السيد وصافحه، مثله فعل صابر، أشار كامل لفاروق بربتة على فخذه بالانطلاق، وانطلقت العربة مسرعة، خشية أن تصيبهم شظايا القنبلة المتفجرة..

استوت العربة على طريق السفر عائدة بهم من رحلة الـ٢٤ ساعة، قال صابر مغمغما وهو يستنشق الهواء بجشع:

- منك لله ياكامل..

- منى لله، من يسمعك يظننى أضرك..

- حرام والله.. حرام.. عم السيد فقد توازنه.. القنبلة حديث البلدة الليلة وكل ليلة..

قال كامل:

- حكم النصيب، ولا راد لحكمه.. سعادتك إن شاء الله مع سميرة ياصابر، ولن تجدها مع غيرها أبدا.. ترتب الأمور، توزنها، تجد فيها نصيبك..

ـ الحقيقة سميرة تناسبه وهو يناسبها..

قالها فاروق، ولم يتلق ردا، شرد صابر بعينيه إلى الحقول، واستقرت عينا كامل تخترق الطريق الطويل، ويقبض فاروق على عجلة القيادة بقوة..

***

أوقف فاروق العربة وهتف:

ـ أشهد أن لاإله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حمد الله على السلامة..

تنبه كامل، نظر إلى صابر، نظر الإثنان إلى فاروق، انتابتهما الدهشة، قال صابر:

ـ وصلنا بسرعة..

قال كامل:

ـ يبدو أن النوم استولى عليّ..

قال فاروق ضاحكا وهو يدس مفاتيح العربة فى جيبه:

ـ ربنا سترها معنا، غلبنى النوم عدة مرات بالطريق..

ناوله صابر ضربة على ظهره صائحا:

ـ كنت أوقف العربة واركنها على جانب الطريق، أو اترك كامل يقودها..

ـ الحمد لله وصلنا بالسلامة..

غادروا السيارة، استقبلتهم الأسرة بأعين متسائلة، مستفسرة، جذبت رومية ذراع فاروق لتنفرد به وتسأله، خلص ذراعه قائلا:

ـ عندك صابر، اسأليه، أنا نفسى أنام..

وتسلل إلى غرفة الكتب، ألقى بجسده فوق إحداها، سرعان مااستغرق في النوم..

قال كامل لعم حفنى:

- ألف مبروك ياعم حفنى.. خطبنا سميرة لصابر..

عقب صابر مكملا:

- سميرة ابنة خالتى سيدة..

هتفت أم صابر:

- بنت عم السيد..

وقف عم حفنى، احتضن كامل بين ذراعيه وقبله، هتف:

- والله ولد، مايجيبها إلا رجالها..

ثم توجه إلى أم صابر، أمسك بيمينه كتفها وقال:

- جهزى نفسك للسفر الصبح، خلصى الموضوع، الشبكة لازم تكون يوم الخميس..

قال كامل مع كلمات الاحتجاج من أم صابر وصابر:

- والله خير البر عاجله.. أنا تزوجت فى ثلاثة أيام..

ثم قال لأم صابر:

- فعلا، تسافرى فى أسرع وقت ممكن، تركناهم فى قلق، قلنا له اخترنا بنتك سميرة لصابر وانطلقت بنا العربة. تركنا لهم القلق والفكر وسافرنا.. سفرك لهم يطمئنهم ويعرفون أن الموضوع جد..

قال عم حفنى:

- الصبح إن شاء الله تسافر..

ثم بصوت خفيض لايصل أسماع صابر:

ـ أحسن المحروس ابنك يغير رأيه..

نظرت إليه وقالت:

ـ وأنت مستعد تعمل شبكة يوم الخميس..

قال عم حفنى فى شموخ:

ـ جاهز..

وضرب جانب صدره بقبضة يده، استأذن كامل فى الانصراف، تمسك عم حفنى ببقائه، قال:

ـ مستحيل، لم تغمض لنا عين منذ سافرنا..

قالت رومية:

ـ فاروق ياعينى فى سابع نومه..

قال كامل وهو ينصرف تودعه كلمات الدعاء من عم حفنى وأم صابر:

ـ وأنت ياصابر، نام واحلم بالأحلام السعيدة..

وجذب باب الشقة وراءه..

***

لمحها واقفة فى الشرفة، تهللت أسارير وجهها، غادرت الشرفة، استقبلته على بسطة السلم أمام الباب، تلقته بين ذراعيها، أشبعت وجهه تقبيلا:

ـ حرام عليك ياكامل.. تعذبنى..

قال وهو يصحبها إلى الداخل:

- عمرك زرت الريف..

هزت رأسها بالنفى.. أردف قائلا:

- إن شاء الله نسافر يوم الخميس لحضور شبكة صابر..

- صحيح والنبى..

قالتها فى فرحة، سبقها إلى حجرة النوم، نظر إلى أيمن قائلا:

- أسافر وهو نائم وأعود وهو نائم..

- تقدر تصحيه..

أمسك بكتفيها قائلا:

- اسمعى ياحبيبتى، حبيبك فى غاية التعب، طول الليل سهران، يعنى نفسى أنام..

وهو يخلع ملابسه ويلقى بها كيفما اتفق:

- طيب، أعد لك الحمام، وبعد العشاء......

- نفسى أنام..

طبع على جبهتها قبلة، ثم استلقى على السرير، ضم أيمن إلى صدره، وراح فى سبات عميق..

(٢١)

اقترب صابر من تحقيق حلمه، انهمك ليلا ونهارا فى الإستعداد لحفل الخطوبة، يوم بعد يوم يمر على صلاح إمام فى مكتبه، يجلس معه يتجاذبان أطراف الحديث حول خطوبته، ويرتب معه أفكاره حول السفر، ثم يدعوه لمصاحبته إلى كامل فى المصنع، يعتذر صلاح بارتباطات عمل، لكنه يؤكد فى الوقت نفسه حضوره يوم الخميس قرب الثالثة، تصحبه مها ليسافرا معه إلى بلدته وحضور حفل الخطوبة..

زار كامل فى بيته بمصر القديمة بعد ثلاثة أيام من عودتهم من المنصورة، استقبله كامل، سعدت سماح لمقدمه، بادرته مهنئة:

ـ ألف مبروك، ربنا يتمم عليكم بخير.. كامل معجب بسميرة..

قال كامل:

- أنا قلت له بصراحة، لو لم أكن متزوجا لتزوجتها فورا..

قالت سماح وهى تنظر لكامل بإعجاب:

- دائما اختيارك ياحبيبى لايعلى عليه..

قدم كامل حقيبة من البلاستيك، قرأ ماعليها، اسم وعنوان المتجر، قال:

- هديتك، والله كنت نسيتها فى دوامة الحياة والعمل..

تلقاها صابر فرحا وقال:

- أشكرك جدا ياكامل، خففت علىّ العبء..

- المهم تلبد للترزى لينتهى من تفصيلها..

- ليل ونهار واحياتك..

وضعت سماح بينهما زجاجات عصير البرتقال قائلة:

- المفروض يكون شربات..

- فكرتينى والله أنت بنت حلال..

قالها صابر ثم استطرد:

- إياك أم صابر تطلع ناصحة وتشترى لهم الشربات والسكر..

قال كامل وهو يقدم سيجارة لصابر:

- ماأخبار البلدة؟

- علمى علمك، المهم أن أمى هناك.. قبل السفر قالت لو اتفقنا

أقعد حتى الخميس وإن حصل لا قدر الله خلاف أرجع على طول.. والحمد لله حتى الآن..

قال كامل:

- تعشم خيرا فى وجه الله، أنت تستحق كل خير ياصابر..

وجه صابر حديثه لسماح:

- جهزى نفسك ليوم الخميس..

- طبعا، اسأل كامل أنا قلت له...

قاطعها كامل وقال:

- أقول لك ياسيدى، قالت لى أى سفرية لابد أكون معك..

ثم استطرد ضاحكا:

- تتهرب من القلق علىّ..

- لها الحق، أى زوجة تحب زوجها حباً حقيقياً تقلق عليه..

قالت سماح لكامل سعيدة برأى صابر:

- اسمع.. كلام فى الصميم..

ابتسم صابر، ثم ضحك، قال لسماح وهو يشير إلى كامل:

- خطير زوجك ياسماح، نظرة واحدة لسميرة وتقريبا فى الظلمة على ضوء اللمبة الباهت، لمح البنت، ظل طول الليل يحدثنى وأقنعنى.

ثم أردف بعد أن وضع زجاجة العصير فارغة على الصينية: --

- شكرا ياسماح، الحقيقة كامل أوقد شمعة فى حياتى المظلمة.. تصميم والدى على سفره معى كان فى محله، كالعادة يخشى أسافر وأرجع وأقول له العروسة لم تعجبنى..

قال كامل:

- سميرة أعجبتك، إياك أن تقول كامل ورطنى فى الزواج من سميرة..

- لأ طبعا، بينى وبينك أنا أصلا مسافر وكلمة الرفض على لسانى.. لاأعرف كيف غيرت اتجاهى؟

- ألم تسمع ياصابر مقولة «الحظ يطرق الباب مرة واحدة»..

- فعلا، أنا آمنت بأن لكل انسان على وجه الأرض ضربة حظ واحدة..

- الحمد لله أنك أدركتها..

قبل صابر يديه:

- ألف حمد وشكر لك ياالله..

قبل انتهاء الزيارة، همس فى أذن كامل:

- ربما احتاج منك بعض المال..

- اطلب ياعزيزى، أى مبلغ تحت أمرك..

- ليس الآن، تحضره معك يوم الخميس.. ربما أخوك يحرج بطلب لم يكن فى حسبانه..

ـ لاتخف.. كل شئ إن شاء الله تماما كما نود..

تناول معهما العشاء، داعب أيمن ولاطفه، تناوله بين ذراعيه مداعبا، قال لأبويه:

ـ أول فرح يحضره أيمن معكما فرحى..

قال كامل:

ـ مايتوب أمه غير التعب، العيال فى سنّه تنام، تقوم وتنام، يزعجها الضجيج إما يبكى أو ينام، اتفقنا نتركه عند أمى، لكن يوم زفافك يكون معنا..

قبله صابر عندما رآه يرفع ذراعيه إلى أمه، أعطاه لها:

ـ ربنا يحرسه ويكبر بسرعة..

قام مستأذنا، قال كامل:

ـ مازال الوقت مبكرا..

ـ أقضى مع الترزى الليلة..

عند الباب قال صابر:

ـ نسيت أقول لك، صلاح وعدنى أن مصاريف سفرنا كلها على حسابه، وقال أنه أعد لى مفاجأة، حاولت أعرفها لم أستطع..

ـ يعنى أترك سيارتى هنا..

ـ سيتفق مع سيارة لنا كلنا ..٧ راكب، أنت وسماح، هو ومها، فاروق وأختى رومية، وأنا .. العدد كامل..

- اتفقنا..

***

أقبل يوم الخميس سريعا، تأهب صابر فى حلته الجديدة، قميصه، كرافتته، حذائه، سوَّى شعره عند الحلاق، نثر فاروق على شعره وعلى حلته بعض العطر، وقف فى الشرفة، يتلقى التهانى من الجيران، يتطلع إلى أول الشارع، يدخن بشراهة، قال لرومية:

- كله تمام..

أجابت:

- تمام ياأفندم..

عند تمام الثالثة وقفت سيارة أجرة، نزل منها كامل وبصحبته سماح، وراءها وقفت سيارة بيجو نزل من مقعدها الأمامى صلاح بعد أن أفسحت له مها، قال لكامل:

- فى الميعاد بالتمام..

ثم أشار صلاح بيده لصابر، أغلق صابر شيش الشرفة، خرج فاروق تتبعه رومية، تأكد صابر من إغلاق كل النوافذ، محبس المياه، أغلق باب الشقة ولحق بهم..

ركب فاروق ورومية فى المقعد الخلفى، وفى مقعد الوسط جلست سماح وبجوارها كامل ثم صابر، وإلى جوار السائق جلس صلاح ثم مها بجوار النافذة..

قال السائق وهو يسير على مهل:

ـ ألف مبروك ياعريس، ربنا يتمم بخير..

ـ الله يبارك فيك، عقبال أولادك..

عند أول الطريق الزراعى قال:

ـ الفاتحة ياجماعة نصل بالسلامة..

قرأوا جميعا الفاتحة، ثم وضع السائق رجله اليمنى على دواسة البنزين وانطلقت السيارة تنهب أرض الطريق نهبا..

أمسك صلاح بلفافة فك رباطها:

ـ مااسمك ياأوسطى؟

ـ خدامك محمد..

فتح علبة الجاتوه، وزع عليهم جميعا، حاول السائق الاعتذار عن قبول قطعته، قال صلاح ممازحا:

ـ اسمع ياأوسطى، أنت معنا على الحلوة والمرة..

ـ ربنا يبعد عنا المرة، ويجعل يومنا حلو..

أردف صلاح:

ـ لم تفهم قصدى؟ أنت معنا حتى ترجع بنا، تأكل مما نأكل منه، تشرب مثلنا، اعتبر نفسك واحداً منا..

تناول السائق قطعة الجاتوه شاكرا.. التفت صلاح بعدها إلى صابر قائلا:

ـ عندما تقترب من البلدة قل لى.. إياك تنسى..

تذكر صابر ماقاله صلاح عن المفاجأة، التفت إلى كامل وقال:

ـ انتظر مفاجأة صلاح..

قال فاروق:

ـ أية مفاجأة يأستاذ صلاح؟

قالت مها ضاحكة:

ـ الحقيقة هى مفاجأة لك يافاروق..

عقبت رومية:

ـ لأ يأبله، فاروق بعيد عن أى شئ..

التفت صلاح إلى الوراء وقال:

ـ صلى على النبى «عليه الصلاة والسلام»

أنا رسمت خطة لصالحك، على فاروق تنفيذ أول جزء منها والباقى علينا تنفيذه، خشية حدوث مشاكل، يحضر شراء الشبكة عدد كبير، يعنى نحتاج لعربتين أو ثلاث وربما أربع، وأنت تدفع، يعنى خراب لميزانيتك وأنا عارف محدوديتها، نوفر مالنا، ونرحم أنفسنا من المشاكل وتضييع الوقت، مهمة فاروق ورومية....

قاطعته رومية:

ـ أنا بعيدة عن الموضوع يأستاذ صلاح..

ضحك صلاح ، قال لها:

ـ رومية خافت..

ثم استطرد قائلا:

ـ العروسة لو اختارت شبكة فى حدود مائة جنيه، بعض الموجودين يغيرون اختيارها، وربما تضطر لدفع الضعف أو ضعفين.. صح ياأوسطى..

ـ كلام واقعى وسليم..

ـ رأيى، أن رومية تدخل بسرعة وتحضر العروسة، وأقرب البنات لها، أى بنت من أولاد خالتها أو أختها أو من بنات عمها، المهم بنت فى سنها، خطيبتك والبنت إياها تركبان معنا، والأوسطى السواق ربنا يكرمه يفر بنا إلى المنصورة، نشترى شبكتنا، مهمة عمنا فاروق أنه يشرح للناس الموقف، و...

ضحك صلاح وفاروق يقول:

ـ وإن شاء الله يقضون على قبل رجوعكم..

قال كامل:

ـ فكرة مجنون..

قال صلاح:

ـ ماهو الجنون فنون.. فكروا فى خطتى.. أنا ومها، ورتبوا أربعة مع صابر، اختاروا من تريدون..

قال صابر:

ـ كامل وسماح لابد يحضران معنا..

قال فاروق بعد برهة صمت:

ـ والله فكرة ممتازة..

قال صلاح:

ـ اتفقنا، صاحب الجزء الأكبر والمهم فى خطتى وافق..

ـ أنا موافق وربنا يستر..

قالها فاروق، وتلقى على أثرها بعض لكمات رومية فى جانبه، وفوق فخذيه، قال ينهيها:

ـ كفى.. أنا أعرف شغلى، أبوك خط دفاعى..

قال صابر:

ـ برافو يافاروق، احتمى بعمك حفنى الكل يخاف منه ويحترمه..

قال صلاح سعيدا بالموافقة على خطته:

ـ الكل موافق..

ـ موافقون..

ـ متى نصل؟

قال فاروق:

ـ كلها نصف ساعة ونصل..

بعد قليل قال صلاح:

ـ متى نصل؟ الواحد نفسه يدخن سيجارة..

قالت سماح:

ـ اعمل معروفا، أنا أكره رائحة الدخان..

وقالت مها:

ـ لايقدر وأنا معه..

قال صلاح لصابر فى سخرية:

ـ تزوج يافالح، إن شاء الله تكتم على نفسك مثلنا.. معى ياكامل..

قال كامل متهربا من الموقف:

ـ أنا من نفسى قللت التدخين، لاأدخن غير علبة واحدة فى اليوم..

قالت مها:

ـ نفسنا تتسوها تماما..

قال السائق وهو يقترب من البلدة:

ـ حمد الله على السلامة ياجماعة..

رددوا جميعا، فى جوقة بها الكثير من النشاز:

ـ الله يسلمك..

***

أصيبت سميرة بالهلع والذعر، وجدت نفسها وحدها مع ابنة عمها، خافت من عقاب وعتاب ولوم الجميع لها، داعبها صلاح قائلا:

ـ خطفناك، من اليوم أنت زوجة صابر، ماالمشكلة؟

قالت فتحية ابنة عمها:

ـ والدى صعب جدا، أخاف يقلبها دندرة..

قال كامل:

ـ صدقونى، لن يحدث أى شئ، على الأقل فى وجودنا، ربما لو عملها واحد من البلدة تتقلب لمعركة.. لكن أنا واثق أن لنا احترامنا عند الجميع..

قال كامل فى فكاهة:

ـ رجال القاهرة من يجرؤ على رفض طلب لهم؟

بدأ الخوف يتسرب من سميرة، طلب كامل من السائق التوقف، يركن على جانب الطريق، نزل كامل ويد سماح فى يده، طلب من صابر النزول أيضا، طلب من سميرة وفتحية الانتقال إلى المقعد الأوسط مع صابرو احتلا مكانهما فى المقعد الخلفى، جلس صابر فى الوسط عن يمينه سميرة خطيبته، وعن يساره فتحية ابنة عمها..

بدت فتحية مستثيرة، متفتحة، أضفت على الجو روحا مرحة،

هونت على سميرة، بدأت سميرة تشارك فى الحديث، تبتسم، تضحك، يد صابر تحتضن يدها، تجذبها، ثم تنسى، ثم تنظر إليه بعينيها، تبتسم وتخبئ ابتسامتها، تصف لهم ماحدث بعد سفرهم الجمعة الماضية.. تقول وهى تضحك:

- كاد أبى يجن، وكدت أموت من الفرحة..

قال كامل:

- عم السيد رجل طيب، أخمن أن المفاجأة أذهلته، لم يكن يتوقع..

قالت سميرة:

- الحقيقة أبى يحب صابر، وكان يتمنى أن يزوجه بنفسه..

قال صلاح:

- وتحقق ماتمناه.. زوجة بابنته..

***

بعد شراء الشبكة، دعاهم كامل لتناول بعض المرطبات فى أى كازينو، قال:

- أنا لاأعرف أى مكان هنا، يقودنا أحدكم لكازينو أو كافيتريا..

قالت فتحية:

- أتحبون كازينو على النيل؟

قال صلاح:

ـ وهو المطلوب..

قضوا حوالى نصف ساعة، تناولوا فيها المرطبات، تنسموا هواء الليل العليل المنعش، قال كامل فى طريق العودة:

ـ كازينو جميل..

قالت فتحية:

ـ أقضى فيه بعض الوقت مع خطيبى.. ابن عمتى.. نرتاح فيه عن أى مكان آخر..

قالت سميرة:

ـ يحضران كثيرا لشراء لوازم الجهاز...

***

تحمل فاروق الكثير من اللوم، التأنيب، لم يجد أمامه غير الهرب من المكان، توجه إلى القنطرة عند مدخل البلدة، جلس أمام المقهى، يتناول كوب الشاى وعيناه صوب الطريق...

رأى السيارة قادمة، قبل أن يلحق بها، اجتازت القنطرة إلى داخل البلدة، سار فى أثرها، ناداه عم حفنى بأعلى صوته، توقف، رأى عم حفنى يصحب معه المأذون، انتظر حتى لحقا به، قال عم حفنى:

ـ أنا قلت نكتب الكتاب، لإحساسى إمكان فشل الزواج، يوجد أناس تسعى لذلك..

فهم فاروق من المقصود بالسعى لإفشال الزواج، يعرف جيدا أن

عم السيد يفقد إرادته أمام إرادة أخيه، تنجم مشاكل كثيرة بينه وبين زوجته تدخله فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتهما ويعرف عم حفنى ذلك جيدا من كثرة ماسمع عن مشاكل.. قال فاروق:

ـ برافو، قطعت خط الرجعة أمام الحاج برعى..

وضع عم حفنى يده على ذقنه وقال:

ـ شابت من كثرة التجارب.. لاأسلم ذقنى لمخلوق أبدا.. زوج خالتك برعى أعرفه جيدا..

مفاجأة أخرى يفجرها عم حفنى، وقف عم السيد مبهوتا، غارقا فى بحر بلا قرار، سأله عم حفنى أمام الجميع:

ـ نعقد العقد، عندك أى مانع..

استحسن الجميع الفكرة، انزوى عم سميرة جانبا، قال له عم حفنى:

ـ عندك مانع ياحاج برعى..

ـ قال عم سميرة فى غيظ مكبوت:

ـ الولد ابنك والبنت بنتك..

ـ افتح لنا بيتك نعقد فيه العقد..

قال صلاح لكامل مبديا إعجابه بتصرف عم حفنى:

ـ ضربة معلم والله، مفاجأة مذهلة..

فتح الحاج برعى حجرة الصالون، دخلها أولا عم حفنى

والمأذون، دعا مرغما ضيوف القاهرة صلاح وكامل، ثم أهل البلد الكبار، بعدما جلس من جلس، ووقف من وقف، قال عم حفنى:

- طلباتك ياحاج برعى..

- يعلن أبوها طلباته..

قال عم السيد وهو ينظر إلى أخيه الأكبر..

- ماتوافق عليه ياأخى أنا موافق عليه..

دق عم حفنى الأرض بعصاه وقال:

- قل للمأذون ماتريده، كل طلباتك أنا موافق عليها..

- طلباتى هى طلباتى مع خطيب ابنتى..

ضحك عم حفنى وقال:

- توكل على الله يارجل، اكتب مايقوله ياأستاذ..

تم عقد القران، ارتفعت الزغاريد، دقت الطبول، تبادل الجميع التهانى، اضطر الحاج برعى أن يمد المائدة فى بيته، قال فاروق:

- عم حفنى رنقه في خانة اليكّ

ضرب صلاح صابر على كتفه قائلا:

- أبوك عقر ياصابر..

قال كامل:

- أصبحت زوجتك يابطل.. شد حيلك وخلص الموضوع بسرعة..

حاول كامل وصلاح الاستئذان للسفر، حاول عم السيد وأخوه الحاج برعى إثناءهما عن عزمهما، قال صلاح:

- لايمكن، أنا مرتبط مع السائق يوصلنا حتى القاهرة..

- الوقت مازال مبكرا..

مد صلاح يده:

- إنشاء الله عقبال زفاف فتحية..

تبادلوا التحية، ركبوا السيارة، اتخذوا طريق عودتهم إلى القاهرة..

(٢٢)

اسيتقظ كامل قرب الظهر، غادر سريره، اقترب من حماته تجلس فوق الأرض تلاعب أيمن، قام أيمن وجرى إلى ذراعى أبيه الممدودتين، قبله، داعبه تحت إبطه، استغرق أيمن فى الضحك..

- صباح الخير ياحماتى..

- يسعد صباحك..

نظر إلى الشرفة، ثم إلى المطبخ، قال متسائلا:

- أين سماح؟

- ذهبت للمصنع الكبير..

- حالا أحضر لك إفطارك..

- أفضل كوب شاى..

- حاضر..

، ام سماح إلى المطبخ، قالت بصوت مرتفع:

ـ هل أخبرتك سماح بشئ؟.. قالت لى أفكرها تقول لك..

ـ خير إن شاء الله..

ـ حمدى ابن الحاج حسن سأل عليك..

بدا الاهتمام على كامل، لابد وأن الأمر هام، لم يلتق به منذ التقيا فى عزاء المرحوم حسنى تذكر وعده وصلاح بزيارته، لكن ليس ذلك مدعاة لأن يرسل فى طلبه، رتب فى ذهنه أن يمر عليه بعد أن يلقى نظرة على المصنع الجديد، يطمئن من أخيه عن سير العمل، يمر على أبويه يطمئن عليهما، ثم يذهب إليه..

تناول الشاى، قام وتوضأ، صلى الصبح، حمل أيمن بين ذراعيه، قال لحماته:

ـ سأترك أيمن عند أمى، أخبرى سماح أننى عند الحاج حسن برهوم..

دخل بعدما هبط السلم إلى المصنع، لقيه كارم مرحبا، سأله:

ـ كيف الأحوال؟

ـ نحتاج دفعة للأمام لكن لاأعلم كيف؟ التسويق ضعيف..

ـ قل الانتاج كثير، كل تجار الملابس النسائية يصلهم انتاجهم.. ماالمشكلة؟

ـ نحتاج توسيع السوق.. لم لا نسوق ملابس الأطفال فى المحافظات؟ لديكم بعض العملاء يمكن الاعتماد عليهم..

ـ أفكر فى اقتراحك..

قال كارم مترددا:

ـ أعـرض عليك أمـرا، قل رأيك.. بطة زوجـة عـادل، تذكـرها طبعا..

ـ طبعا أذكرها، أتريد تشغيل إحدى بناتها؟

ـ لأ.. لم تطلب ذلك، لكنها طلبت أن تأخذ بعض الملابس لبيعها، تتاجر فى كل شئ من لوازم الأكل والشرب، إلى لوازم العرايس، تبيع بالتقسيط والنقد، أصبح عندها سوق كبير..

ـ عندى فكرة.. أخبـرتنى أمـك.. على العـموم، أعطيك رأيى بعد العصر..

انصـرف كامل، صعـد إلى شقـة أبويه، حيـاهمـا، تـرك أيمن مع جدته وقال:

ـ أنا ذاهب إلى بيت الحاج حسن برهوم..

ضرب أبوه جبهته بيده وقال:

ـ فكرتنى، قابلنى بعد صلاة الجمعة أمس، وسألنى عنك..

قطع كامل الطريق، يفكر فى الحاج حسن، يفكر فى بطة، يفكر فى سماح، يفكر فى موضوعه الأسـاسى، يريد القفز بطفرة جديدة فى تصنيع مـلابس النسـاء والأطفال معا، يدرس الموضوع من جميع جوانبه، استقر رأيه على البحث عن مصـممـين لكل صناعة منها، بدأت تظهـر فى السوق مـصـانع كثـيرة، يخـشى أن يتفـوق أحدها، يفكر فى السـفر للخارج للاتفاق على آلات جديدة، ومتطورة، يرقب تحـرك السـوق عن كثب، بعض النوافذ المطلة على العـالم الخـارجى تفتح على استحياء، بعض الواردات بدأت تظهر فى الأسواق، تظهر بعض توكيلات لشركات أجنبية تعد مقراتها لبدء النشـاط.. يمنى

نفسه بالحصول على توكيل لإحدى الشركات الكبرى الأجنبية لينضم إلى الأوائل فى هذا المجال..

اقترب من البيت، فاجأه صوت الحاج حسن:

- تفضل ياأستاذ..

لقيه عند باب الحجرة بمجرد دخوله مدخل البيت، صافحه بحرارة، دعاه للدخول،. قال وهو يجلس بجوار النافذة:

- أصبحت أنت وصلاح عملة صعبة..

قال كامل مبتسما:

- كيف ياحاج؟

- آه، أين وعدكما بالزيارة..

- شغلنا والله ياحاج..، عقد صديقنا صابر قرانه أمس فى بلدة أمه بالمنصورة..

- عال.. عال..

- أين حمدى؟ ماأخباره؟

قال الحاج حسن وهو يمسح جبهته بيده:

- كان هنا أمس الجمعة، سافر بالليل إلى وحدته.. والله قلبى مشغول عليه.. أجازاته خاطفة، ٢٤ ساعة كل أسبوعين أو ثلاثة.. لن تعرفه لو رأيته،...

- ربنا يكتب سلامته..

- هو وجميع أولادنا على الجبهة..

- ثم استطرد:

- أنت تعرف الحاج على الليثى، قام الرجل ولوجه الله ببناء

مسجد الشيخ علوان، ربنا يزيده من نعيمه، قال لى أنه ينوى عمل جمعية شرعية تتولى أمر المسجد، وعنده اقتراح بضم مسجد الإخلاص للجمعية، فما رأيك؟

ـ والله فكرة عظيمة، وفر على مشوار طويل، كان فى ذهنى أسلمه لوزارة الأوقاف تديره وتتحمل مسئوليته..

ـ ولم الأوقاف؟ إشراف الجمعية أفضل من جميع النواحى، يعتبر وجود دار المناسبات مهماً كدخل للجمعية، وفصول التقوية إن شاء الله يستفيد منها أولادنا التلامذة، ونشغل الخريجين بدون عمل كمدرسين.. يعنى الفايدة تعم..

ـ الرأى رأيك ياحاج، ويعتبر الحاج على الليثى مسؤولا عنه من الآن..

ـ أبلغه بعد صلاة العشاء بإذن الله..

ـ والله ياحاج الواحد سعيد، كل مايمشى فى مكان يجد مساجد تحت الإنشاء.. يمكن فى الحى وحده سبعة أو ثمانية مساجد..

ـ سمعت أن ربنا كرمك بأيمن..

ـ الحمد لله، ابتدأ الشقاوة والعفرته..

ـ ربنا يخلى.. أمه بنت حلال..

ـ جدا ياحاج..

ـ وماهى أخبار صاحبك صلاح؟

ـ بخير، كان معى فى حفل زواج صابر..

ـ أظن ابنه كبر..

ـ دخله مدرسة خاصة..

قال الحاج حسن بدهشة:

ـ خاصة مرة واحدة.. تكلفه ياما.. ليتك تبلغه لو يستغنى عن شقته نأخذها لحمدى.. نحجزها له..

ـ لاأظن ياحاج، سمعته يقول عن فتحها مكتبا يزاول منه عمله..

ـ لاأعرف أن له عملا غير الوظيفة..

يفتش كامل فى رأسه عن إجابة لكلمات الحاج حسن، فهو أيضا لايعرف له عملا غير الوظيفة، بعد فترة تفكير قال:

ـ سمعت أنه ينوى العمل بالتجارة إلى جانب الوظيفة..

ـ يبدو أنها عدوى فى البلد.. الناس كلها تفكر فى التجارة.. أصحاب البيوت أغلبهم يدفع دم قلبه لإخلاء السكان من الأدوار الأرضية، وتحويلها إلى دكاكين..

يضحك ويستطرد:

ـ سيد أخى، يحتفظ بدكان مغلق ويقول لى، الدكان هى المستقبل أحسن من البيت الملك.. كلام عمرنا ماكنا نسمع عنه..

ـ والله ياحاج بدون مبالغة، الناس تشعر أن المستقبل أحسن من الماضى.. كل المشكلة تتوقف على طرد العدو من سيناء.. أغلب الناس، كل واحد جهز مشروعه وينتظر.. وفيه ناس بدأت فعلا، بعض المعلبات المستوردة ظهرت فى المحلات، التفاح الأمريكانى واللبنانى ملأ الأسواق وبرخص التراب.. نقدر نسميها تباشير، أو مؤشرات..

ـ شراء السلاح لابد يفتح الباب للتجارة.. وربنا يهيئ خير، الناس كلها تعبت وقاست سنين طويلة..

- أما زال النشاط السياسى موجودا؟

- كل سنة وأنت طيب..

وقهقه الحاج حسن قهقهة عالية، مردفا:

- لاحسن ولاخبر.. ظلت الناس مشدودة بالسياسة من يوم ماقامت الثورة، أخيرا الخيط انقطع.. كان لابد ينقطع.. كل واحد يجرى على همه، يهتم بمصالحه..

وبعد أن صمت قليلا قال:

- شوف ياابنى، لايصح إلا الصحيح، أنا حتى الآن لاأعرف كيف أن أى حكومة تطعم الشعب وتسقيه وتلبسه وتعلمه وتوظفه وتسكنه، كلام بعيد عن أى منطق، ولا فى الأحلام ممكن يحصل..

- فعلا، كلامك كله منطق ياحاج.. والحمد لله الوضع بدأ يتغير، البلد فيها حركة..

- وفى الحركة بركة..

قام كامل مستأذنا الحاج حسن فى الانصراف، صافحه الحاج حسن وقال:

- قل لصلاح يغلط مرة ويزورنا، قل له لايحرمنا وهاته معك..

- بإذن الله..

انصرف كامل وذراع الحاج حسن تودعه من النافذة..

(٢٣)

جلس كامل يلاعب أيمن، يلقى إليه بالكرة، يتلقاها منه، ينتظر انتهاء سماح من إعداد العشاء، كالعادة كل ليلة، يتحدثان - بعد العشاء - فى أمور العمل بعض الوقت، يتبادلان الرأى فيما يظهر من مشكلات بين حين وحين، ينوى الليلة أن يطرح عليها مايراه مناسبا من ترتيبات شهر رمضان المبارك، يشعران بالسعادة وهما يجلسان وبينهما أيمن حول الطبلية الصغيرة، يطعمانه، يتأبى، يتركانه يأكل وحده، يتناول أصابع البطاطس المقلية، يمسح أصابعه فى جلباب أمه، تمسك يده وتمسحها بالفوطة قائلة:

- حرام عليك، كل ليلة أغير هدومى بسببك..

يضحك كامل وهو يغنى:

- أكثر ثلاثة أحبهم، أنت وأيمن والجرجير..

ألقت إليه نظرة معاتبة صامتة،، مد أصبعه مداعبا، أسقط خصلة من شعرها فوق جبينها أخفت عينيها، صاحت:

- حرام عليك ياكامل..

- قولى حاجة.. أى حاجة..

ألقت برأسها إلى الوراء، ارتفعت خصلة الشعر، ساوتها بيدها قائلة:

- الجرجير ياحبيبى زينة أى سفرة، زينة طبق السلاطة، يذكرنى دائما بأمى..

- بالمناسبة، عندى اقتراح، نقضى عشرة أيام من رمضان عند أمك، مثلها عند أمى، والعشر الأواخر نعزمهم جميعا عندنا، هه، مارأيك؟

- لأ طبعا.. رمضان هناك له طعم، له لون.. هنا الحياة لا تتغير..

- كلها خمس دقائق وتجدى لرمضان طعم ولون فى الحى الشعبى..

- هناك فرق، تجلس إلى جوار الشباك ترى رمضان، الأنوار، الأولاد يلعبون بالفوانيس، الزينة بالكهرباء حول مئذنة سيدى عباس، تسهر حتى السحور ولاتمل السهر..

- الخلاصة..

- كالعادة، وربنا مايقطع لنا عادة، يوم هنا، ويوم هنا، وبعد العيد نرجع..

رفعت الطبلية إلى المطبخ، عادت وحملت أيمن إلى الحمام، سألت وهى تغسل له يديه وفمه:

- هل اتفقت مع الجزار؟

- اتفقت هنا وهناك، هنا عم عبده يستلم منه ويوزع على كل العاملين بالمصنع، وهناك كارم يستلم من الجزار ويوزع..

- عملت حسابنا..

لحق بها وهى تغير لأيمن ملابسه فى حجرة النوم:

- أنا أوصيت على زوج فراخ رومى، واحدة نفطر بها عند أمى أول يوم، الثانية نفطر بها عند أمك ثانى يوم..

دفعت بأيمن إليه:

- خذه معك حتى أغير هدومى..

لحقت بهما بعدما أبدلت ملابسها، جلست إلى جواره، دس أيمن جسده الصغير بينهما، قال:

- جهزتى الحقيبة؟..

- جهّزتها..

مد ذراعه خلف رأسها، تحسس رقبتها، وضعت يدها فوق يده قائلة:

- فى نفسك حاجة قلها..

- أبى يتمنى أختا لأيمن..

وهى تبعد رقبتها عن يده:

- قل لروحك ياحبيبى.. أنا مستعدة أخلف أربعة أو خمسة.. نكون عيلة..

- بعد رمضان نفكر..

- لأ وحياتك، بعد الشريط مايخلص كل سنة وأنت طيب..

قامت إلى المطبخ، أعدت كوب اللبن لأيمن، جاءت به، بمجرد أن رآه جرى ليختبئ، جرى أبوه وراءه وأمسكه، عاد به وأمسك بيده الأخرى كوب اللبن:

- اشرب ياحبيبى.. أبوك كان يلون الشاى بملعقة لبن أو ملعقتين..

ضحكت سماح وقالت:

- أنا كنت أشربه فى المواسم، خصوصا مع الرقاق فى العيد الكبير..

يتنهد كامل قائلا:

- كانت أيام..

- على فكرة، نسيت أقول لك، حفل زواج زينب فى العيد..

- أخيرا ربنا رزقها بابن الحلال..

- الحمد لله.. طلب يدها سيد ابن المعلم شفيق الله يرحمه.. أتعرفه؟

- طبعا، يساعد أخاه عبد الله فى المقهى.. أظن أنه أصغر أولاد المرحوم..

- هم ثلاثة صبيان، أمين فى الترماى، وعبد الله وسيد فى المقهى، ولهم أخت اسمها أمينة، فى المستشفى ممرضة..

- ياه، حسبتهم ثلاثة فقط..

ضحكت سماح وقالت:

- حبيبتك تعرف الحى كله، كبيره وصغيره، إسأل وأنا أجيبك..

ابتسم كامل وسألها:

- هل تعرفين جدى حافظ؟

- ملامحه تايهه من دماغى، لكن كنت أراه يستند بذراعه على كتفك فى الشارع.. كنت صغيرة..

- ماشاء الله عندك ذاكرة قوية.. الولد نام.. خذيه لسريره..

حملت سماح أيمن إلى سريره، تنتعش ذاكرتها، ترى كامل فى كل خطوات حياته، تتبعه تقفز إلى خيالها صورة عزيزة، تفكر لحظات، هل تسأله عما كان بينهما؟، جلست على حافة الفراش، هل مااتهمت به صحيحا؟، وإذا لم يكن صحيحا فلماذا تركت الشقة وانتقلت إلى غيرها خارج الحى؟، بحر من الأسئلة يجوب رأسها..

ترد على مخيلتها الإجابات على أسئلتها، بالتأكيد كان بينهما علاقة يتراىء لها يوم تبعتهما إلى الكازينو، يوم ضاقت بها الدنيا،

يوم تلقفهـا عـزت وهى ضـائعـة لاتعـرف كيف تعـود لأمـهـا، اشـتـغلت بمصنعه، تزوج بها عرفيا، ثم تركت له البيت ثائرة بعد أن لفقت له بنت من عاملات المصنع قضية اغتصاب.. ثم.. ثم..

نحت عن ذهنها فكرة التقصى، لم يسألها يوما عن ماضيها، هى حكت له بنفسها قبل سفره، لم تسأله الآن؟ وهى ترفل فى السعادة معه، تأمن غدر الحياة إلى جانبه، لا أسرار فى حياته منذ تزوجا، ولاأسرار فى حياتها..

- هل نمت ياسماح؟

انتبهت لصوته، أجابت:

- أنا آتية حالا..

وقفت أمام المرآة، خلعت جلبابها، فتحت الدولاب، انتقت قميص نوم بنفسجى اللون، وضعته على السرير، وهى تهم بخلع قميصها رن جـرس البـاب، توقـفت أمـام الدولاب، سـمـعت كـامل يرحب بصديقه:

- أهلا ياصابر.. تفضل..

دخل صابر وهو يقول:

- زيارة بدون موعد، الحقيقة كنت قريبا من هنا، فكرت..

- يارجل، البيت بيتك..

ارتدت سماح جلبابها، سمعته يسأل عنها:

- كيف حال سماح؟ وأيمن؟

- سماح آتية حالا، الولد نام قامت به إلى سريره..

خرجت سماح، صافحت صابر مرحبة، كرر اعتذاره:

- أنا آسف إذا كان الوقت متأخرا..

قالت سماح:

- يامرحبا فى أى وقت، ماأخبار عروستك؟ هل زرتها؟

- تبعث لك السلام،، كنت فى البلدة اليوم..

- تشرب شاى ياأستاذ صابر..

قال كامل:

- تتعشى قبل الشاى.. لو كنت بكرت للحقت بنا على العشاء..

قال صابر:

- أشرب الشاى..

توجهت سماح إلى المطبخ لتعد الشاى، لمح كامل حزنا ما على وجه صابر، سأله:

- أراك مهموما، ماذا حدث لك؟

قال صابر فى شئ من الهم:

- تصور صلاح يرفض لى طلبا..

- أى طلب؟

- طلبت منه التنازل عن شقته لى أتزوج فيها رفض..

- اسمح لى أقول لك صلاح معذور.. أعتقد قبل طلبك طلبها منه سيد برهوم زوج أخته..

- ولماذا يطلبها سيد؟ عنده بيت كبير..

- طلبها لابن الحاج حسن، حمدى أنت تعرفه..

- لم يقل لى صلاح..

- أنا عرفت من الحاج حسن نفسه.. وطبعا يخشى صلاح أن يقال أنه فضلك عليهم.. وربما عنده حسابات أخرى بخصوص هذه الشقة..

- أشكرك توضيح الأمور لى..

وضعت سماح صينية الشاى على المنضدة الصغيرة بجوارهما، شكرها صابر وقال:

- كل سنة وأنتم طيبون.

- وأنت طيب..

- وبمناسبة رمضان، أنم مدعوون للإفطار عندى يوما فى رمضان، أترك لكما تحديده.. نظرت سماح إلى كامل، بادلها النظرات، قال:

- نفكر ياصابر..

- بدون تفكير، ولاأقبل أعذارا.. حدد اليوم من الآن..

قال كامل:

- وفيم العجلة؟ نحدده ونخبرك به..

قال صابر بعد فترة صمت:

- أنا أعتقد أن أول رمضان يكون يوم الخميس، مارأيكما فى يوم الجمعة؟

- ربما يكون أوله الجـمـعـة.. ولعلمك أول يوم وثانى يوم لاتصح فيهما أى عزومة.. نقضى أول يوم مع عمك أبو كامل، وثانى يوم مع أم سماح..

قال صابر:

- نعتبر الجمعة الثانية من رمضان عندى.. اتفقنا؟

- اتفقنا ياصابر..

تنهد صابر فى ارتياح، قال ضاحكا:

- ممكن أشرب الشاى..

تناول كامل عدة رشفات من كوب الشاى، قال لصابر:

- لم تقل لى رأى أبيك فى موضوع الشقة؟

- أبى كل الأمور عنده سهلة وبسيطة، وبمنتهى البساطة قال لى، أذهب للنجار يعد لك حجرة نوم، ونخلى لك حجرة من الشقة تزوج فيها.. يظن أنه حل المشكلة..

- أنت، مارأيك فى هذا الكلام؟

ـ والله فى حيرة، أحيانا أرى رأيه هذا، على أساس أنى بعد الزواج عندى مشروع عمل بالخارج سنة أو سنتين.. وأحيانا افترض أن مشروع سفرى تعطل لأى سبب ماالموقف فى هذه الحالة.؟

ـ إذا كنت ناوى السفر فعلا، نفذ رأى عم حفنى، على الأقل تسافر وأنت مطمئن.. وما مشروعك بعد السفر؟

ـ إن شاء الله أفكر فى شراء عدة قراريط فى البلد، أقيم مزرعة فراخ، وجزء أزرعه، وابنى بيت بصراحة أنا زهقت من الشغل فى الشركة.. نفسى أكون حرًا فى عملى..

ـ مشروع جميل، ليتك تعمل على تحقيقه..

ـ إن شاء الله وبدون مقاطعة أحقق أحلامى.. أنا حسبتها، أنا موظف، أولادى يطلعوا موظفين، وبعد، أنا أبنى حياتى بصعوبه، ولاأظن إنى أقدر أبنى لابنى حياته...

ـ نفس أفكارى ياصابر، وهى كانت دوافعى للسفر، والحمد لله..

قال صابر وهو يتأهب للانصراف:

ـ التفكير المنطقى مريح..

صافحهما مؤكدا دعوته، قال كامل:

ـ لعلمك، أنا وسماح نقضى شهر رمضان فى الحى، سيكون لنا لقاءات متعددة..

ـ مدهش، أنا كنت حامل هم ليل رمضان أقضيه مع من؟ وكيف أقضيه؟ لنا لقاءات إن شاء الله وكل سنة وأنت طيب ياكامل، وأنت طيبة وأيمن طيب ياسماح..

ودعـه كـامل فى سـرور، عـاد، لحق بسـمـاح فى حـجـرة النوم، استلقى إلى جوارها، قالت مغضبة:

- إن شاء الله تسهر مع صابر وتنسانى..

- يعنى سـاعـة أو سـاعـتين نسـتـعـيد ذكـريات الماضى، لاتعـتبـر مشكلة..

- بالنسبة لى مشكلة..

- إن شاء الله نحلها..

- أعرف، كل مشكلة عندك لها حل..

- تكرهين ياسماح أن يكون زوجك حلال مشاكل..

- لأ، يسعدنى بالتأكيد..

- ياترى من يعيش؟ لاندرى ماتخفيه عنا الأيام..

- كل خير إن شاء الله ياحبيبى.. كل خير..

ضمها، ضمته، بسمل، بسملت، أسلما نفسيهما للكرى..

(٢٤)

بدا الصباح مختلفا عما اعتاده الناس، أشرقت الشمس منذ أمد، لم يخرج من أبواب الدور والمنازل والبيوت إلا تلاميذ المدارس على اختلاف أنواعها، بعض العمال الذين يرتبطون فى أعمالهم بنظام الورديات، أما الموظفون فما زال أغلبهم يغرق فى نوم عميق، المحلات كلها مغلقة أبوابها، المقهى، مصنع سماح لملابس الأطفال يفتح أبوابه، قلة من العابرين يقطعون الطرق فرادى، يبدو على وجوههم أثر السهر الطويل..

كل عام، فى أول رمضان، يقضى أغلب الناس ليلته الأولى فى سهر، يعدون وجبة السحور، يتجمعون عند المطاعم فى انتظار تسوية الفول، وعند اللبّان فى انتظار الزبادى، وفى البيوت يجلسون حول الراديو أو التليفزيون، يشهدون فيلما دينيا، أو إنشادا، أما كبار

السن فإنهم يحصلون على غفوة قصيرة تعينهم على الذهاب بعد السحور إلى المساجد لآداء صلاة الفجر ويجهرون بالدعاء..

قرب التاسعة، دبت الحركة، آخر الأفواج الذاهبة إلى مصالحهم أو الوزارات التى يعملون بها، مواعيدهم الرسمية الجديدة تبدأ من العاشرة صباحا وحتى الواحدة ظهرا..

لفتت الأنظار سيارة بوليس النجدة تجتاز الشارع فى هدوء وبطء، يسأل الضابط عن بيت الحاج حسن برهوم، تسير، تتوقف للسؤال، تسير، توقف سيرها عند مدخل درب الطحان، نزل منها الضابط وإثنان من العسكر، وقف أحدهما إلى جوارسائقها، بينما صحبه الثاني مشيا إلي داخل الدرب، أشارت إحدي النسوة إلي بيت الحاج حسن، ووقفت بباب بيتها تنتظر..

سبق العسكرى الضابط ودق على الباب المفتوح، خرجت إليه ابنة الحاج حسن:

- نعم..

سألها الضابط:

- الحاج موجود..

تنبه الحاج حسن من نومته فوق الكنبة، تحت النافذة، أطل برأسه العارية من النافذة وقال:

- تفضل ياحضرة الضابط..

ثم ترك الكنبة، واتجه نحو باب الحجرة لاستقباله، أدخله، دعاه

للجلوس، يدور فى الحجرة يفتش عن عمامته، ناولها له الضابط حيث كانت خلفه على مسند الكنبة، تناولها الحاج حسن شاكرا وجلس:

- تحت أمرك ياولدى..

-كلفت بمهمة ثقيلة، أنا أعرف أنك من المؤمنين بالله..

داخل الحاج حسن شئ من القلق والخوف، لكنه قال:

- الحمد لله..

تلفت الضابط حوله، يجد صعوبة ومشقة فى نقل الخبر، لكنها الأوامر:

- والمؤمن بالله يؤمن بما يكتبه الله إن كان خيرا أو كان شرا..

هتف الحاج حسن معبرا عما يمور داخله من قلق وتوتر:

- أوجز ياولدى، هات ماعندك..

- البقية فى حياتك..

- فيمن؟

- حضرة الضابط حمدى..

قالها الضابط وهو ينتفض، يخشى رد فعل غير متوقع، كأن يرتمى الرجل مغشيا عليه، أو يسقط فاقدا لحياته، غمغم مردفا:

- الخيرة فيما اختاره الله، استشهد الضابط حمدى فى مناورة عسكرية..

استند ظهر الحاج حسن على مسند الكنبة، عيناه شاخصتان نحو السقف، يردد:

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولاقوة إلا بالله..

يقول الضابط لمن لايسمعه:

ـ الشهداء عند ربهم أحياء يرزقون.. ألهمك الله الصبر.. كلنا لانملك من أنفسنا شيئا..

يردد الحاج حسن مقولته العالقة بذهنه:

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله..

وجد الضابط نفسه فى موقف لايملك فيه تصرفا، هب واقفا، استرد الحاج حسن وعيه قال وهو يجفف دموعه:

ـ هات بقية الرسالة ياولدى..

ـ لدى أوامر مشددة باصطحابك والسيدة والدته لدفنه فى مدافنكم.. أو ندفنه فى مقابر الشهداء..

فوجئ الضابط بأم حمدى تقتحم الحجرة، تصرخ:

ـ ولدى مات.. حمدى.. ابنى مات.. أراه بعينى ياحاج، أراه لآخر مرة ياحاج..

تبكى وتولول، يربت الحاج على كتفيها مهدئا، يدفع بها نحو بابا الحجرة، تعود إلى الضابط تتوسل إليه باكية:

ـ وحياة والدتك، وغلاوتها عندك أراه، أراه ويأتى لبيته ثم يخرج منه..

ـ صعب جدا عليَّ ياحاجة.. الأوامر تمنعنى..

يلتفت الحاج حسن نحوه قائلا:

ـ ابننا مات وانتهى الأمر، حقق لنا آخر أمانينا.. الله يرضى عليك..

ـ كان بودى والله ياحاج، ليس الأمر بيدى..

ـ خذنى معك للمأمور، أين جثة ابنى أولا؟ أمازال فى وحدته؟ أم فى المستشفى؟.. أو..

ـ الحقيقة ياحاج الجثمان جاهز للدفن، ملفوف بعلم مصر، ينتظرنا عند القسم..

ـ إذن دعنى أقابل المأمور..

ـ تحت أمرك ياحاج..

انتعل الحاج حسن مداسه، خرج فى أثر الضابط والعسكرى إلى السيارة، تتبعهم أم حمدى حافية القدمين، فى جلبابها الأسود، لفت طرحتها السوداء حول رقبتها، جلست عند مدخل الدرب تبكى وتعدد:

ـ مت ياروح الروح، خلاص ياحمدى، زى النسمة عديت ياروح أمك..

التفّت حولها النسوة مرتديات السواد، تتسع الحلقة بانضمام أخريات، انتقل الخبر عبر الدروب والحوارى والأزقة، تجمع عدد

كبير من الناس، أصحاب كل المحلات على اختلاف أنواعها، أحضر الفراش عددا كبيرا من الكراسى رصها صفوفا فى الشارع، وقف سيد برهوم يبكى، يلوم نفسه لأنه لم يلحق بأخيه ليذهب معه، يواسيه الرجال، يأخذ أحدهم بيده ويجلسه، يجفف دموعه، تسيل غيرها، يصل صوت أم حمدى إليه:

- يازينة الشباب ياابنى..

ينخرط سيد فى النشيج، يهتف بعض الرجال:

- وحد الله ياسيد.. الأعمار بيد الله، وحد الله..

يعلو صوت أم حمدى:

- ياحبيبى، كنا فى انتظارك تفطر معنا يوم، ياحبيب أمك ياحمدى..

بعض الرجال، أثَّر فيهم هول الموقف، تدمع الأعين، تتوارى الوجوه، تمتد الأيدى بالمناديل تجفف الدموع، كل العيون يسكنها الدمع..

سيارات كثيرة تدخل الشارع، تصطف خلف بعضها، أقارب للحاج حسن برهوم انتقلوا إلى أماكن أخرى، أبناء الحى الذين تزوجوا واستقلوا بحياتهم فى مصر الجديدة، أو مدينة نصر، أو المعادى، أو المهندسين، تاكسيات أجرة تأتى، يستقبل راكبوها، تنضم إلى الصفوف، يستقبل سيد القادمين دامع العينين، تتلقاه الوجوه دامعة هى الأخرى:

- شد حيلك، شد حيلك ياسيد، ربنا اختاره فى يوم مبارك..

تضم صفوف الكراسى الشباب الغض، الرجال متوسطى العمر، من وصلوا سن الكهولة، كلهم، الحزن يخيم على الوجوه، سحابة تظلِّل كل الرؤوس، يزداد جمع النسوة، تصرخ أختاه، تهب فيهما أم حمدى:

- لاصراخ ولالطم الخدود.. ابنى مات شهيدا، ابنى زفافه إلى الجنة..

تغتال صوتها الدموع، فتردد بصوت مبحوح:

- ابنى زينة الشباب، ابنى عريس الجنة..

تخنقها الدموع فتصمت، تشاركها بعض النسوة النشيج بأصوات مبحوحة، يأتى الفراش بالمزيد من الكراسى، يستقبل سيد الكثير من القادمين، امتلأ الشارع عن آخره بالسيارات، توقف فى آخرها أتوبيس كبير يتبع الشركة التى يعمل بها سيد برهوم، جاء بعض زملائه وممثلى النقابة ليشاركوا فى تشييع الجنازة..

هبت النسوة واقفات، نهض كل الرجال من فوق كراسيهم، صوت صراخ سيارة النجدة يقترب مسرعا، خلفه سيارة من الجيش تحمل النعش مغطى بعلم مصر.. فوجئ الضابط بالحشد الكبير، أوقف السيارة، على مبعدة، هرولت النساء إلى النعش، أحاطت بالسيارتين إحاطة السوار بالمعصم، غادر الحاج حسن مكانه، وقف يتلقى التعازى، همس الضابط فى أذنه:

ـ ياحاج أرجوك، فلنسرع إلى المدفن..

أبعد بعض الرجال تجمهر النسوة، كاد سيد برهوم يلطم أختى الشهيد لتشبثهما بالنعش، هدأه رجل طاعن فى السن:

ـ رغما عنهما ياسيد، رغما عنا جميعا ياولدى..

وسط الجمع الحاشد، صاح الحاج حسن ردا على الضابط:

ـ فى باب النصر.. ابنى أول شهيد فى باب النصر..

بدأ ركب الجنازة يتحرك فى بطء، أسرع الرجال إلى ركوب السيارات، انضم صلاح إمام وعم حفنى وأبو كامل إلى كامل فى سيارته، أشار كامل لأخيه كارم بركوب الأتوبيس، بدأت السيارات تأخذ وضع الإستعداد للسير خلف النعش، ركب الحاج حسن سيارة النجدة، مال الركب ناحية مسجد الشيخ علوان لصلاة الجنازة، اعترض الضابط ولكنه لم يكرر اعتراضه مرة أخرى، انصاع لما يقرره الحاج حسن، أو الحشد المرافق له..

***

بعد الصلاة، تأهب الركب للتحرك، تقدمته سيارة بوليس النجدة تخلى الطريق بسارينتها المخيفة، امتد طول الركب من مسجد الشيخ علوان وحتى الميدان حيث موقف الأتوبيس، يقف الناس على جانبى الطريق، يرفعون أيديهم مرددين، «أشهد أن لا إله إلا الله، أنتم السابقون ونحن اللاحقون»..

يطل الناس من الشرفات والنوافذ، يذهلهم طول الموكب الحزين، ومن داخل السيارات تدوى صيحة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»..

(٢٥)

خيم الحزن على المنطقة بأسرها، من يعرف ومن لايعرف الشهيد حمدى حسن برهوم، من شارك أو من لم يشارك فى جنارته، من قام بأداء واجب العزاء أو من لم يقم، يمتد عمق الحزن إلى السنوات الماضية، يتجدد الحزن فى بيوت استشهد أبناؤها فى حرب ٦٧، بعدها حرب الاستنزاف خلالها شهداء البنائين لحائط الصواريخ، شهداء بحر البقر وأبى زعبل، يطوى كل بيت جوانحه على حزن ما، شهداء البيت المنهار الذى مازالت أنقاضه قائمة ومازال يحمل اسم مصطفى اللبان، كل بيت له فى الجيش ابن أو أخ أو أب أو زوج أو خال أو عم، يمتد الصوم حتى السحور، وبلا شهية يبتلع كل من ينوى الصيام لقيمات تقيم أوده لصيام يوم تال..

الوفود تتقاطر على بيت الحاج حسن من بعد صلاة التراويح

وحتى وقت متأخر من الليل، يتلقى كلمات المواساة بقلب خاشع مؤمن، ونفس صابرة، وإرادة قوية حين يذكر الله، تفتر حينما يتخيل ابنه فى بزته العسكرية داخلا أو خارجا من البيت، يتحامل على نفسه، يكبح جماح دموعه وما أن يخلو البيت من المترددين ينخرط فى بكاء طويل..

يرى فى الوافدين وجوها لم يألفها، يسأل للتعرف عليها، تعلن الشخصية عن نفسها، عن أبويها، عن أسرتها، يتعرف عليهم، يشعر بمحنته تتجاوز البيت، الدرب، الحى، المربع كله، يشعر بمشاركة كل الناس محنته، كأن مصر كلها تشاركه، أحيانا يقول:

- نفسى كنت أحتفظ بعلم مصر..

ومرة أخرى يقول:

- ابنى حمدى أول شهيد فى باب النصر..

تتسرب الأيام، الحياة الروتينية جاثمة، متسيدة، لم تؤد حبال اللمبات الكهربائية مهمتها التى علقت من أجلها، لم يخرج الأولاد والصبية إلى الشوارع والحوارى والدروب بفوانيسهم ليلعبوا، ويرددوا أغانيهم الفرحة بقدوم رمضان، لم يبق دلالة على وجود الناس فى الشهر الكريم إلا اللمبات المعلقة على مآذن المساجد وحدها، لاتنطفئ إلا بعد صلاة الفجر من كل يوم..

لايخلو حديث لاثنين أو ثلاثة أو مجموعة أو مجموعات عن الشهيد حمدى، الاستفسارات لاتجد ردا شافيا، كيف استشهد؟،

وأين؟، بعضهم يقول ماسمع، أنه كان فى عملية فى سيناء خلف خطوط العدو، بعضهم يقول مايظنه، انه كان فى مناورة بالذخيرة الحية وحدث خطأ منه، بعضهم ينعطف على الوضع الراهن فى استياء «لاحرب ولا سلام»، يتساقط الشهداء والله حرام، «البعض يقول» ضعنا وانتهى الأمر، سنظل فى رباط إلى يوم القيامة..

اضطر كامل فى يوم الجمعة، إلى اصطحاب سماح وأيمن تلبية لدعوة صابر للإفطار، استقبلهم عم حفنى مرحبا، قال فى معترك الحديث عن الجيش، والسكون الذى يخيم على البلدة:

ـ الأولاد مافى خبر عنهم.. أهم أحياء أم شهداء..

قال صابر مطمئنا والده:

ـ ياوالدى لاتخف، علاء فى أسوان، وعمر فى مرسى مطروح، بعيدان عن الجبهة.. يتنهد عم حفنى ويقول:

ـ نفسى قبل مأأموت.. نقوم قومة رجل واحد ونقضى قضاء على الصهاينة ولاد.....

يقول كامل:

ـ يسمع منك ربنا ياعم حفنى.. العملية طالت وباخت..

قال صابر ردا على سؤال كامل عن أخويه عمر وعلاء:

ـ علاء ربما ينزل أجازة فى منتصف رمضان.. أما عمر فقال فى العيد ينزل..

- وماأخبار أمير؟

- أمير يحضر للإفطار ويعود بعد الإفطار إلى السنترال.. يقول أنهم فى حالة طوارئ.. علق كامل:

- طوارئ المناسبات..

دخل صلاح محييا، صافح الجميع، داعب عم حفنى:

- إياك والصيام يارجل ياعجوز..

قهقه عم حفنى قائلا:

- أتظننى أفطر، أفطر مثل والدك الله يرحمه..

- والدى كان يصوم لقلة الأكل..

ويضحك، يشاركه الجميع الضحك..

سأله صابر:

- أين مها وسمير؟

- عند الحاجة أمى.. إفطارنا عندها..

- كنت أتوقع منك هذا.. على كل حال وفرت..

رد صلاح معقبا على صابر:

- الحمد لله، لاإحساس بجوع أوعطش، تستغلها فرصة وتعزمنا، وتحسب علينا لأ ياحبيبى.. احتفظ بالعزومة لوقت آخر..

رآهما أمير بعد الإفطار يقفان فى الشرفة، غادر البيت، توجه

إليهما، انضم إليهما فى الشرفة تبادل وكامل التهنئة بشهر رمضان، واستأذن على الفور للانصراف..

ـ فيم العجلة ياابنى؟ لى عدة شهور لم أرك..

رد أمير:

ـ الحالة «ج» ياصاحبى..

فسر صابر المعنى لكامل:

ـ طوارئ مائة فى المائة..

قال كامل وهو يصافحه مودعا:

ـ كان الله فى العون..

انضم إليهما صلاح بعد أن قابل أمير على السلم، قال معبرا عن الدهشة من عجلته:

ـ الولد مستعجل، كأنه فى حالة حرب..

رد صابر على حديثه:

ـ لو كنت دخلت الجيش كنت عرفت ذل الأوامر..

ـ الحمد لله، موت أبى رحمنى..

مد صلاح يده لعم حفنى مصافحا، قال متعجبا:

ـ كل زياراتك على الواقف، أعرف الأصول ياأخى..

ـ تصدق بالله ياعم حفنى، لم نزر حماى حتى اليوم.. ولابد من زيارته الليلة.. قال صابر وهو يودعه:

- على راحتك ياصلاح..

تبادلوا بعض الأحاديث المتفرقة، حين سأل كامل عن سميرة قال صابر:

- تصور، ممكن أسافر لها الليلة، أحضر السحور فى البلد وأعود فى الصباح.. لم أذهب فى رمضان..

- يجب عليك الذهاب.. نستأذن نحن وتوكل على الله، بلغها عنا السلام.. هيا.. جهز نفسك وننزل معا..

- أنا جاهز..

- أنا أعرف.. أنت مجنون وتعملها..

شكر كامل عم حفنى على دعوة الإفطار، حيا أم صابر ورومية وفتحية، صحبته سماح ممسكة أيمن بيدها قائلة:

- قل باى لماما أم صابر.. وطنط رومية وفتحية..

رفع أيمن يده محييا كما طلبت منه أمه، حين صافحها كامل همست له:

- حرام عليك الولد يعيش وحدانى..

قال كامل ضاحكا:

- التساهيل على الله..

نزل صابر معهما، توجه إلى الشارع الرئيسى، تبعه كامل وسماح، استوقف سيارة، لوح مودعا، وانطلقت به..

علق كامل على تصرف صابر بقوله:

- أرأيت جنونه؟

- والله برافو عليه..

(٢٦)

الصبية، الأولاد، الشباب، كل يجرى فى اتجاه، أغلبهم يصيح فيمن يقابله:

- الحرب قامت..

يهرع أبو كامل إلى الراديو، تتوقف أنفاسه وهو يستمع إلى أنباء الهجوم على العدو، يترك الراديو، يفتح التليفزيون، يتلقى نفس الأخبار، تظهر البشاشة على وجهه:

- سمعت ياأم كامل، الجيش يعبر القناة..

- يارب يعبروا بألف سلامة..

ترتفع أصوات الراديوهات فى الشارع، تنقل الأخبار، تجمعات عند النواصى، على أبواب الدروب والأزقة، عند الميدان، أغلب

ماتتمتم به الأفواه: «يارب انصرنا هذه المرة» يعبر كامل عن فرحته لصلاح عبر أسلاك الهاتف، يتواعدان على اللقاء بعد المغرب، سماح تزغرد، وأمها تهتف فى سرها وعلى مسمع من سماح «يارب.. يارب..»

يقف عزوز وسط الشارع صائحا:

- انصرنا يارب.. عجل فرح زينب هدية النصر، يارب أتم جميلك علينا يارب..

يعلق أحد المارة:

- النصر لنا إن شاء الله، صبر الولاد طول السنين وبركة شهر رمضان تعم علينا يامعلم عزوز...

يرد عزوز:

- يعنى أذبح العجل..

- أذبحه ولن تندم..

- أذبحه بعد إذاعة البيان الثالث، حتى لو كنا فى نصف الليل..

- إياك تنسانا..

يلقى عزوز أمرا لزوجته:

- جهزى السكاكين ياأم زنيب..

بعد أقل من ساعة، تخلو الشوارع، الحوارى، الميدان، من كل مار، لاذ الجميع ببيوتهم، يطل عم حفنى من النافذة، ينفض رماد

السيجارة فى الشارع، يقول له زوج بسبس:

ـ سعيد ياعم حفنى..

ـ إن شاء الله نوزع الشربات..

يقول أبو صفوت من شرفته:

ـ ربنا يتم النصر على خير، نفسنا ننتصر مرة ياولاد.. زهقنا من الهزائم..

ـ ربك موجود ياأبو صفوت..

يقول عم حفنى لنفسه:

ـ والله الولد رفع رأسكم يا....

خشى أن يرفع بها صوته، لئلا يغضب أبو صفوت، إذ دائما ماكان يقول له:

ـ تفتكر ابن بلدكم يجيب الديب من ذيله، ياأخى ده د ه..

ينظر إلى أبى صفوت وهو يضحك بكل أسارير وجهه، يرفع عم حفنى صوته:

ـ خفف على نفسك ليطق لك عرق..

يدخل صابر فرحا سعيدا يقول لأبيه:

ـ سمعت الأخبار..

يلتفت عم حفنى نحوه ويسأله:

- ماذا أخرك للآن؟

- الطريق مغلق، ولم أجد سيارة تعود بى، ماذا أذيع فى آخر بيان..

- الولاد يعبرون القناة..

يخرج الحاج حسن من بيته، يحمل العباءة على كتفه، قال لزوجته عندما سألته عن وجهته:

- أنا ذاهب إلى باب النصر، أقرأ الفاتحة على روح حمدى..

- خذنى معك..

- لأ..

وهى تلح يصرخ:

- قلت لأ..

تتبعه عن بعد، بعد أن مال ناحية الشارع الرئيسى، أسرعت إلى أخيه سيد قائلة:

- الحق ياسيد، أخوك ذاهب إلى المدفن، اذهب معه..

يسرع سيد للحاق بأخيه، يجده واقفا فى انتظار مرور سيارة ليستوقفها بادره الحاج حسن قائلا:

- ارجع لمصالحك ياسيد..

- ياأخى لن تجد سيارة فى هذه الساعة..

ـ أمشيها على قدمى.. اتركنى الله يرضى عليك..

ـ أنا معك ياأخى.. أنا معك.. الحمد لله دم حمدى لم يضع هدرا..

ـ الحمد لله، ولهذا أزوره الآن..

ـ صحتك ياأخى لاتتحمل المشى..

ـ أنا فى خير صحة ياسيد..

يقول سيد وهو يمسك بيد الحاج حسن:

ـ تعالى ياأخى، تعالى نمر فى شوارع الحى وأى سيارة نجدها نستأذن صاحبها فى أن يذهب بنا إلى المدافن..

يطاوعه الحاج حسن، يسيران فى الشارع، يقتربان من سيدى عباس، يلمح سيد سيارة كامل أمام بيت عزوز، يقترب وينادى:

ـ ياأستاذ كامل.. أستاذ كامل..

يطل كامل من الشرفة، يجدهما، يهرول هابطا الدرجات:

ـ تفضلا.. تفضل ياحاج حسن..

يقول سيد لكامل:

ـ نثقل عليك فى أن تأخذنا بسيارتك لمشوار قصير..

ـ تحت أمرك..

يتجه نحو السيارة، يفتح بابيها:

- تفضلا.. تفضل ياحاج حسن، تفضل ياسيد..

يجلس خلف عجلة القيادة:

- أين تنوى الذهاب ياحاج؟

يقول الحاج حسن:

- باب النصر إن شاء الله..

- على بركة الله..

تنطلق السيارة، بينما تقف سماح بالشرفة متعجبة، مندهشة من تصرف كامل، كيف يتركها دون أن يخبرها بوجهته؟

بعد طول تحديق خلف السيارة التى اختفت، لم تجد فى نفسها إلا الدعاء لعودته إليها بالسلامة..

● جمعة محمد جمعة

● عضو اتحاد الكتاب ـ نادى القصة ـ جمعية الأدباء ـ جمعية أنصار حقوق الأنسان ـ رابطة الأدب الحديث.

● حصل على:

ـ جائزة مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٥ عن قصة (قلب الأم).

ـ جائزة نادي القصة عام ١٩٧٧ عن قصة (العدو تحت ضوء القمر).

ـ جائزة إحسان عبد القدوس عام ٩٣ ـ ١٩٩٤ عن رواية (المراهقون).

● صدر له:

ـ الأبيض والأسود ـ قصص ـ ١٩٧٧

ـ قلب ـ الأم قصة ـ ١٩٨٣

ـ مهزلة عائلية ـ مسرحية ـ ١٩٨٧

ـ حياة رخيصة ـ قصص ـ ١٩٩٢

ـ هي امرأة ـ قصص ـ ١٩٩٤

ـ المراهقون ـ رواية ـ ١٩٩٨

ـ الأيدي الدافئة ـ قصص ـ ٢٠٠٠

ـ المتعبون ـ رواية ـ ٢٠٠٠

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٦١٤ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8533 - 7